كتاب

لا شيء من اللا شيء

שום דבר מכלום

زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أونقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: لا شيء من اللا شيء
اسم المؤلف: زهير أبو سعد

الطبعة الأولى 2021 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2021/5188
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

مقدمة

أنا لديَّ اسمٌ لم أختَرْه ، اسمٌ لشخصٍ آخر ، وجودي هُنا ذكرى لشبحٍ مقتولٍ تحتَ مِظلَّةٍ سياسيَّةٍ علمانيَّةٍ مجهولة العُمق ، سوى أنَّها كانت شريكةً في إغراقي بدمٍ باردٍ لا أعرفُ مُنتهاه ..

مَنْ أنا لأكونَ ذكرى مؤلمةً في مخيّلةِ عائلةٍ مقتولة بكاتمِ صمتٍ مُرعب! و لكي يُطلَقَ عليَّ "بتشبه عمَّك زهير " و أنا اليوم عمٌّ لثلاثةٍ مِنْ أبناءِ أخوتي ابتعدتُ عنهم برضًى منِّي ، عندما أتَّصلُ بإخوتي وأرى أبناءَهم أشعرُ بأنَّهم لا يَعرفونني! أنا شخصٌ لستُ منهم ، و لم ألمسْ أحدًا منهم ، شخصٌ مِنْ ورق أُذكَرُ في محافلِ التَّأبين ، في داخلي أربعُ أرواح :

روحي ، و روحُ عمِّي ، و روحُ أبي ، و روحُ أمِّي ، أربعُ أرواحٍ يَتناوبنَ على كلِّ قراراتي التي أوصلتْني أنْ أفقدَ عقلي ذاتَ ضعفٍ في زمنِ الإدمان ، و قد تخلَّصتُ مِنْ كلِّ شيءٍ بعدَ ذلك ..

زهير أبو سعد

مُقدِّمةُ المُدقِّق :

لنْ يَعنيكَ تَساقطُ الصُّبح واللَّيل، ضوءُ الحياةِ في وجهٍ حَديث، كلُّ التَّرقُّبِ والأحاديث...
لنْ تَعنيكَ خَرائبُ الحَواس، تَرثراتُ النَّاس، تَواترُ العلاقات، تَواردُ الأمنيات...
كلَّما دنوتَ منَ السِّنينِ وانسفحَ الوَهْم، كلَّما انجلى الحُمقُ وانقشعَ العتم، كلَّما تَفكَّرتَ بجزائِكَ المَحتوم، برغباتِكَ المُكبَّلة، بميولِكَ المُؤجَّلة، بالرَّاحلينَ واللَّابثين، والعائدين والزَّائلين، العالقينَ في ذكرياتِك، العابرين في حكاياتِك، ومَنْ أثاروا بطُيوفِهم أغبرةَ السِّنين، أبطال الخرائبِ والمصائِب، ولا الفِعل الخائبِ والصَّائب، ولا اللَّائم والنَّاقِد والمعاتِب...
لن يَعنيكَ أحدٌ ولا شيء، وأنتَ بذاكرةٍ تَضمُر ألفَ قضيَّة، ورحلةٍ تَعسَّرتْ عن وصفِها حروفُ الأبجديَّة، لتكشفَ عن لونِ النَّوايا وهيئةِ الألمِ وشكلِه، عن التَّساؤلاتِ التي حظيتَ بجوابِها، والتَّساؤلاتِ دونَ إجابات، عن الظنِّ قبل الفهم، والحُكْمِ بعد العِلم، عن الرُّوحِ في أوجِ اعتصارها، والعقلِ في ذَروةِ انبساطه، عن الحياةِ في أقصى عُسرتها، والقلبِ في عزِّ انقباضِه، عن أيِّ شيء، وكلِّ شيء، حتَّى عن الأسبابِ التي تَجعلُكَ تَختزلُ مُعبِّرًا بكلمةٍ واحدةٍ، وحيدةٍ، مُجرَّدةٍ، قصيرة، ووجيزة، كلَّما سألوكَ عمَّا حلَّ بكَ؟
وأجبتَهم: لا شيء!

أ . ط . ع

إهداء

نَنتظرُ أشياءَ لنْ تَحدُث، ننتظرُ أشياءَ منَ الممكنِ أنْ تَحدُث، لكن بعد كتابةِ هذا الكتاب، الذي يَحملُ العدد: (32) أهديهِ للهبلة والحلوة التي جَعلَتني أكتبُه بعدَ انقطاعٍ دامَ لمدَّةِ سنة.

شكرًا مِنْ كلِّ قلبي.

زهير.

1

(أراقبُ الوقتَ)

كتبتُ هذا الصَّباح في دفترِ مذكَّراتي:

(نحنُ المنسيونَ بينَ زُقاقِ السِّينِ
والتَّسويفِ في أغلبِ مراحلِ ما يُسمَّى بالوقتِ الضَّائع، نسكبُ جُلَّ اهتمامنا في مزرابِ الشَّخصِ الذي لا يُلقي لنا بالا، ولا أي نوعٍ مِنْ يقظةِ الضَّميرِ العاطفي، نحنُ الورقةُ الخاسرةُ التي لم تجنِ سوى نفاياتِ الذَّاكرة، كلُّ ما هُنالكَ إنَّ الوقتَ الذي نملكُهُ يَحترقُ على مَرأى عينينا بلا فائدة، يمرُّ بلا رحمةٍ بكلِّ لحظةٍ ونحنُ ثمالى بمتاهةِ الخيال، نُمزّق جدرانَ الضَّبابِ بالقهقهةِ والسُّخرية، حتَّى الحب أضحى بطاقةً افتراضيَّةً خلفَ شاشةٍ إلكترونيةٍ هيَ أغلى ما نملك، لهذا السَّبب نسندُ مشاعرَنا على حائطِ التَّلميحِ لنستمرَّ بالكذب، ولنوهمَ ما تبقَّى منَّا بأنَّنا ما زلنا على قيدِ الحياة)

إنَّهُ الخميس، الثَّالث من ديسمبر،
وللصُّدفةِ في هذا الصباحِ كانتْ العاصمةُ النِّمساوية فيينا مكسوَّةً بالثَّلج، أوَّلُ أيامِ البياضِ نصاعة، ولقد بيَّتُّ النِّيةَ ليلة أمسٍ لأبدأ صبيحةَ اليومِ بكتابةِ هذا الكتابِ بعدَ انقطاعٍ دامَ أربعة أشهرٍ مرَّتْ لياليها بلا فائدة، وبسببِ خيالي المترامي الأطرافِ أحبُّ ربطَ ما تُقدِّمُهُ الطَّبيعةُ بالكتابة، أنا أشعرُ أنَّني (ابن

الطَّقس) كأنَّ الدُّنيا قدَّمتْ لي ورقةً ناصعةَ البياضِ على رأسِ هذه المدينةِ لأكتبَ ما كانَ مدفونًا في دماغي،
في هاتفي اهتزازٌ يُنذرُ بقدومِ رسائل لم تُقرأْ بعد، أرسلَهُ لي أخي هديَّةً في يناير الماضي، لا أعرفُ ما صوتُ نغمتهِ الخاصَّة؛ لأنَّه صامتٌ يُشبهُني تماما، مُلقى على سريري منذُ إحدى عشرَ شهرا،
مطاردٌ بالماضي والحاضرِ والمستقبل، مضرمٌ بالذَّاكرة التي لم تعُدْ لديَّ القدرة على تحمُّلِها، صباحي لا يقلُّ شَأنًا عن صباحِ الأموات، يُسعفني صوتُ (فرانك سيناترا) العابر مِن بفلِ التِّلفاز، بتُّ أكرهُ الصَّباحَ والمساءَ والوقتَ وأكرهُني بشدَّةٍ لا يتصوَّرُها عقلُ أي مَخلوق، وجودٌ مقزِّزٌ مبلَّلٌ بالتَّشاؤمِ والخذلانِ والقرف، فكَّرتُ مليًّا قبلَ أنْ أكتبَ حرفًا في هذا الكتاب، برمجتي البشريَّة تُدلي على عاتقي كُلَّ مآسي النَّدمِ على الوقتِ الذي يتبخَّرُ بلا فائدة.

لو سألتَني:

- ماذا تنتظر؟

أو:

- على ماذا تندم؟

ستكتشفُ أنَّني ميِّتٌ تماما! لا صوت ولا صورة ولا رائحة، جزءٌ لا يتجزَّأ منَ الخيالِ بل موجة ضبابٍ لا تسوى أن تُلقى في سلَّةِ مُهملات، إنَّهُ شعورُ الأمواتِ -يا غبي- لأنَّ الأمواتَ لا يَشعرون، هل رأيتَ كيف تنقادُ للكلمات!

أكتبُ لكم وأنا تحتَ تأثيرِ الأدوية التي وصفَها لي الطبيب (يوهان ويندهاب) بل وأنا في قمَّةِ الانعزاليةِ مِنْ شهرِ يناير الماضي، عفوًا لم أسمع؟

- ما هو الدَّواء الذي تأخذُه؟

حسنا، الفضولُ لهُ تأثيرٌ مهمٌّ في المجتمعِ الشَّرقي، الفضولُ في الأشياءِ غير المهمَّةِ يُعدُّ في قمَّةِ الأهميَّة لديكم!
طبعٌ متربّعٌ في مُؤخِّرةِ الدِّماغِ يا رسول الله، وإذا لم تعرفْ ما هو الدَّواءُ ستموتُ غيظًا أو قهرًا أو شهيدًا، مجتمعُ التَّصنيفِ والتَّمحيصِ والتَّلميعِ وتحليلِ الوقائعِ على ركائزَ خياليَّة دراميَّة، وهو في قاعٍ بالوعةِ الخراءِ مِنْ كلِّ النَّواحي بدليلِ رؤية كل أممِ الأرضِ قاطبة تحتَ تأثير:

(pregabalin accord 75 mg) و (Mirtel 45 mg

أكتبُ ما لا بدَّ أنْ يُستر؛ لأنَّ سترَ ما خفيَ في الدِّماغِ مهمَّةُ الخالق، وستر أكثر مِنْ مليارِ طفلٍ في مخيَّماتِ اللُّجوء وبلدانِ المجاعةِ هذه لا تُعدُّ مِن مهمَّاتِ الخالق، إنَّها معادلةٌ صعبةٌ في حساباتِ تُجَّارِ الأوهامِ والخيالِ والخرافات، جميعُ الناسِ يُريدونَ أنْ يدلوا بدلوهم كي يَجنوا أموالًا أو مناصبَ أو شهرة، وكلُّ النَّاسِ يَوثِّقونَ الحدثَ والجوعَ والقهرَ والظُّلم، وإذا وضعتَ المعادلةَ في ميزانِ العقلِ ستجدُ إنَّ جميعهم يكذبونَ ويَطرحونَ على حلْبةِ السِّباقِ مزايدةَ الكذب! لهذا السَّببِ قد أخذَ الدَّواءُ مفعولَهُ وهو في الطَّريقِ الصَّحيحِ نحو مواجهةِ الوقائعِ التي أختِؤُها؛ مخافة البشرِ المُضرّينَ بكلِّ

قوانينِ الطَّبيعة، نفاياتُ الآلهةِ المزعومةِ التي جلبَتْ كلَّ هذا القرفِ إلى كوكبِ الحياة، ما تبقَّى مِنْ طعامِ اللهِ في قاعِ الوعاءِ المُلقى على واجهةِ القارَّاتِ المُتناحرة، برازُ ملائكة السّماءِ المنعَّمين على حسابِ مَن يَسكنونَ الخيامَ في هذا البردِ القارسِ (2%°) تحت الصِّفرِ حسب ما تُدليهِ علينا وكالةُ الأرصادِ الجويَّةِ في مدينة فيينا،
عرقُ مُؤخِّرةِ الأنبياءِ المتقاطرِ في فمِ الأمَّهاتِ اللَّاتي يَخضنَ معركةَ الحياةِ مِنْ أجلِ إشعالِ نار اللهِ تحتَ قِدْرٍ حساءٍ خالٍ منَ الدَّسم.

كلُّ النَّاسِ يوثِّقونَ الكذب وهم خائفون منْ فايروسٍ قد اجتاحَ العالمَ برمَّته، وطَوى المدنَ على طرقاتِها طيَّ الكتمانِ
والنِّسيان! لا قاطرة تمرُّ مِنْ هُنا، ولا سيَّارة تأخذُنا إلى نهايةِ الطَّريق، فُتحَتْ دفاترُ الدُّيونِ والألمِ على جسورِ القلوب، الاختناقُ وصلَ ذروتَه، والعالمُ يَشهدُ تَغيُّرًا جذريًّا على كلِّ المستويات، رسالةٌ تَخترقُ الهزَّةَ البشريَّةَ الكاذبة، يكتبُ لي أحدُهم مِن ألمانيا:

- ماذا تفعل؟

- أراقبُ الوقت!

لديَّ فائضٌ منِ الوقتِ لأكتبَ الحقيقةَ عن نفسي، مِن أجلِ ألَّا يَختلقَ أحدُ الكاذبينَ عليَّ بعدَ موتي، أنا أعلمُ جيّدًا بأنَّ لا فائدة إنْ خَلقوا الكذبَ بعدَ موتي، أو في حياتي، أو لم يَخلقوا الكذبَ أبدا، ولكنَّ الوقتَ يَمرُّ على كلِّ الحالاتِ

كأنَّهُ قطارٌ قادمٌ مِنْ فوَّهةِ النَّافذةِ التي أشاهدُ مِنْ خلالِها الثَّلجَ كيف يتساقطُ بلطفٍ على البيوتِ البشريَّة، إنَّهُ قطارٌ مُرعبٌ متوجِّهٌ نحونا، فما علينا إلَّا أنْ نقفَ مُتبسمرينَ في أماكنِنا ليخطفَنا كما خطفَ غيرَنا ممَّنْ كانوا جزءًا صغيرًا مِنْ ماضينا، كانوا جزءًا منَ السَّعادةِ والتَّعاسةِ في آنٍ واحد، نحنُ لسنا في عجلةٍ مِنْ أمرِنا ولكنَّ القطارَ تأخَّرَ كثيرًا ونحنُ تعبْنا كثيرًا مِنْ وقوفِنا على سكَّة الحياة.

أراقبُ الوقتَ كيفَ يَجني كلَّ لحظةٍ
ونخسرُ كلَّ فرصة،
أُداسُ تحتَ كعبِ حذاءِ ديسمبر، بكلِّ قسوةٍ وألم، أريدُ أنْ أكتبَ كلَّ ما أشعرُ بهِ قبلَ أن أتوقَّعَهُ مِنْ صوتِ المحطَّةِ القادمِ مِنْ عالمِ الخيال:

(الرَّجاءُ مِنَ المغادرينَ مِنْ هذهِ الحياة التَّوجه إلى البوابةِ رقم صفر)

ليسَ هناكَ أي أرصدةٍ بنكيةٍ أو إنسانيَّةٍ أو وحشيَّةٍ تفيدُ المغادرين، إنَّه الصِّفرُ الذي يوضعُ في نهايةِ كلِّ حكاية؛ كي نوهمَ القارئَ بأنَّ القصَّة قد انتهتْ نهاية ابتلاع الذِّئبِ لجسدِ يوسف، ولكنَّ الذِّئبَ لم يأكلْه إنَّهُ لبريءٌ كما برَّأهُ الخيال.

أراقبُ الوقتَ لأكتبَ ما تقرأ في لحظةِ انهيارٍ أمامَ كلِّ أقفالِ الذَّاكرة، ملاحقٌ بـ (ما الفائدة) إن أصدرتُ صوتًا أو تركتُ أثرًا أو كشفتُ سرًّا؟
مَنْ سيقرأُ أجزاءَ الانفصامِ التي يعيشها شخصٌ مصابٌ بكلِّ ما لا يخطرُ في دماغِكَ مِنْ أمراضِ (الفوبيا) فوضى تكمنُ على بلاطِ الصَّدر، تُحدثُ في

الجوفِ هزَّة، لو كانَ لها صوت لسمعَها سكانُ القطبينِ الشماليّ والجنوبيّ!
ولأُحدِثَ في وسائلِ الإعلامِ خبرًا عاجلا، مَنْ يَرى آثار الدَّمارِ الشَّاملِ سوى طبيبكَ النَّفسي، الذي تذهبُ إليهِ صبيحةَ كل يومِ إثنين كأنَّهُ فرضٌ كنَسيٌّ قد فُرضَ على لزومِ صلاة يوم الأحد!

أراقبُ الوقتَ لدى الطَّبيبِ في كلِّ بدايةِ أسبوع، هو يَعرفُ أنَّني مُنهارٌ كليًّا، أنا أعرفُ بأنَّهُ يَعرف، هو يسألُني ليُخرِجَ الإجابةَ التي يتوقَّعُها، فأجيبهُ بجوابٍ مُستَّنٍ يَجرحُهُ ويُدميني في ذاتِ الوقت. في عيادتِه المملوءةِ بالكتبِ كرهتُ المكانَ لأنَّهُ يُذكِّرُني بالمكاتبِ التي لم أعُدْ أطيقُ رؤيتَها، أبدلَ المكانَ بغرفةٍ أخرى غارقة بالنَّباتاتِ وألعابِ الأطفالِ والقهوةِ التي يُقدِّمُها لي في كلِّ زيارةٍ أسبوعيَّةٍ له، بل لي، بل لنا، بل للا أحد!
يُسعفُني صديقي -المعالجُ النفسي- بالعبارةِ التي تجعلُني أبتسمُ في كلِّ لقاء:

(لقد جاءَ صديقي الكاتبُ المكتئب، أكثر المراجعينَ إثارةً وذكاءً وحنكةً وحكمة، الصندوقُ المحكمُ بالغموض)

إنَّهُ طبيبي وصديقي (ڤالتر راكوفر) مِنْ هنا أردتُ أنْ أبدأَ سباقًا معَ الوقتِ قبل نهايةِ ديسمبر،
ليسَ هناكَ فائدةٌ إنْ كانَ قبل نهايةِ الشَّهر أو بعد نهايةِ الشَّهر سوى أنَّني ألملمُ حقائبَ الذَّاكرة، وأرتِّبُ ما أريدُ قولَهُ بعدَ الرَّحيل، منْ أجلِ أنْ أضعَ حدًّا للكاذبينَ مِنْ بني البشر، بعد أنْ أتركَ لهم المنبّهَ وهو يقرعُ أذانًا للجثَّةِ المتفسِّخةِ في شقَّةٍ منطويةٍ على ذاتِها، لم يَدخلْها زائرٌ منذُ سنةٍ كاملة.

أراقبُ الوقتَ لأفضحَ سرّي، ولكنْ لا أكتبُ تحتَ تأثيرِ المخدِّرات أو الكحول، بل تحتَ تأثيرِ الوقتِ والأدويةِ التي تجعلُني أطيرُ إلى وجهةٍ مجهولة المصدرِ

والهويَّة، كلُّ ما أحتاجُهُ المزيد مِنَ الوقتِ كي أُنهي هذا العام بسلام، أُنهي هذا الشَّهر بأمان، أنهي ما تبقَّى منِّي بنفسي، أذيَّة مَنْ حصلَ على الحبِّ وفقدَ الأمانَ بنفسِهِ وبغيرهِ وبالكونِ كلِّه.

أيُّها الوقت:

امنحني قليلًا منكَ لأكتبَ كلَّ ما كنتُ أراقبُه فيك.

2

(أنا عالقٌ في متاهةِ الذَّاكرة)

أنْ نُفكِّكَ العبارةَ يعني أنْ نَبدأ مِنْ جديد، والبدءُ مِنْ جديدٍ يعني أنْ يكونَ هناكَ المزيد مِنَ الطَّاقةِ لنخوضَ الجريَ في مضمارِ اللَّا نهاية، مِنْ مساوئِ الذَّاكرة أنَّ
كلَّ الموادِّ التي أرغبُ في إتلافِها غير قابلةٍ للَّمسِ البتَّة، وكلّ الموادِّ القابلة للإتلافِ تختفي مِنْ غيرِ إرادةٍ منِّي، كأنَّ الموادَّ الملعونةَ قد حُكم عليها بملاحقتي ما بقيتُ حيًّا، أصبحَ سقفُ الأمنياتِ لديَّ التَّمني بسكتةٍ قلبيَّةٍ أو أنْ يُضرَبَ الرَّأسُ في عرضِ حائطٍ حتَّى تغرقَ الذَّاكرةُ في غياهبِ جبٍّ لُجِّيٍّ لا خروجَ منه، كلّ يومٍ أتمنَّى لو عندي القدرة لأخبطَ رأسي بالجدار حتَّى ينفلقَ لنصفينِ ويتدحرجَ الدِّماغُ على الأرضِ بعد أنْ تلطَّختْ الجدرانُ بالدِّماء.

هل تخيَّلتَ المنظر؟

الإفراطُ في التَّفكيرِ يَجلبُ للخياليينَ هوسَ المشاهدِ الغريبةِ التي لا يستوعبُها العاملونَ في شركةِ هوليود، ليسَ لديَّ ما أفعلهُ طوال الوقتِ سوى الجري في ممرٍّ أعلمُ أنَّ نهايتَهُ ستأخذُني إلى ممرٍّ آخر، الجريُ خلفَ المجهولِ مُحمَّلًا بكلِّ أثقالِ الذَّاكرة، والموادِّ العالقةِ منذُ أنْ تركتُ التَّخفي خلفَ ظهرِ أمِّي!
لم أكنْ على درايةٍ بأنَّ ظهرَها كانَ حصنًا منيعًا في وجهِ كلِّ هذا القرفِ الذي أحملُهُ بين كتفي، كتفايَ ما عادا يحملاني من هولِ الموادّ المكدَّسة، أستعينُ

بالأطبَّاءِ في كلِّ بدايةِ أسبوعِ أنْ أنجدوني، لا أستطيعُ أنْ أصرخَ بأعلى صوتي لأنَّ الجدرانَ لها آذان، ملاحقٌ بسوطٍ من الماضي يجلدُني بلا رحمةٍ ولا رأفة،
تُمزِّقُ رأسي لعنةُ التفكيرِ بتفاصيل جعلَتْني ابتلعُ كلَّ يومٍ أكثرَ مِنْ ثمانيةِ أنواعٍ مِنْ الأدويةِ المهدِّئة.

لا أستطيعُ العودةَ وأنا غارقٌ في عتمةِ العدم، الشُّؤمُ في أحشائي مدينةٌ قد أخذَتْ على عاتقِها الحدادَ والحزنَ
والبؤسَ إلى ما يسمَّى بنهايةِ العام، كلُّ الوقتِ أسيرُ في المتاهةِ لاهثًا وجاريًا إلى مأزقٍ ليَحلَّ المأزقَ الذي في داخلي، الطبيبُ يَنصح، الأصدقاءُ يُثرثرون، أفرادُ العائلةِ يُلقونَ باللَّومِ المتواصل، وأنا محصورٌ في زاويةٍ مظلمة، ومنغلقٌ على جسدي الذي يَنقصُ مِنْ وزنهِ يومًا بعدَ يوم، في بيتٍ صغيرٍ يُشبهُ صندوقًا مدفونًا في قبرٍ لا شاهدةَ له، هم يُريدونَني أنْ أتحدَّثَ وأثرثر، يُمكنكَ أنْ تتخيَّل بأن ليسَ لديَّ أي مجهودٍ لأنطقَ بحرفٍ واحد، حتَّى الكتابة أصبحتْ تحدِّيًا لي، بينما كانت تحدِّيًا لكلِّ الأفكار التي تمسُّ حريَّةَ الفرد.

الحريةُ بالنِّسبةِ لي أنْ أخرجَ منْ جسدي، جسدي يُعيقُني عن الطيرانِ حيثُ الأمان، الأمانُ بالنِّسبةِ لي هدفٌ لأبقى على قيدِ الحياة، وعندما عرفتُ أنَّ الأمانَ والحياةَ لا يجتمعانِ انتابني التَّحليقُ عن رضى منِّي، متناسيًا الانتظارَ على محطَّةِ قدومِ الأجل،
إنَّ الذَّهابَ إلى الأجلِ أضحى مريحًا أكثر منَ العبثِ مع الوقتِ بلا فائدة، وأنا غبيٌّ وأحمقٌ تقرعُ في رأسي كلَّ لحظةٍ أجراسٌ مزعجةٌ منَ الأسئلة:

- ماذا أفعلُ هنا؟

- لماذا أنا هنا؟

- إلى أين أنا ذاهب؟

فوبيا الهوس في خوضِ مضمارِ المتاهةِ البلُّورية، وهلوسةٌ جنونيَّةٌ تقتادُ رأسي إلى مفرمةِ الألمِ التي لا موتَ فيها، كلُّ شيءٍ هنا يوحي أنَّنا في الجحيم، الجحيمُ الذي يُطلقُ عليهِ إيمانٌ تحتَ نصٍّ (أحياء فيها خالدون) ولكنْ، أنا أعرفُ طريقةً تُنهي هذا الكابوسَ اللَّا إرادي.

عذابُ الرأسِ المتهالكِ الذي سوفَ يفقدُ السَّيطرة، وجعٌ مغروسٌ في خلايا الدِّماغِ كأنَّهُ سلكٌ كهربائيٌّ وُصِلَ بذرَّةٍ نوويَّة، كبسةُ الزِّر أراها أمام عينيّ، إذا قطعتُها هذا يَعني أنَّني سأنقطعُ عن الحياة، وإذا تركتُها سوفَ أبقى أُسحقُ بلا موتٍ ولا مُخدِّرٍ يوقفُ هذهِ اللُّعبة.

كم تمنيتُ أنْ أبقى خلفَ ظهرِها مختبئًا، خجولًا، خائفًا منَ الغريبِ والقريب، بموتِها تهاوَتْ كلُّ الجدرانِ على ساكنيها، كيف كانَ لها أنْ تتحمَّلَ كلَّ هذا الهولِ وتتحمَّلَ أهوالَنا!

أحييها هنا، بالخيالِ أعيشُ بها، تمسحُ على رأسي في هذهِ اللَّحظة، تبتسمُ لما أكتب، تقولُ بوقار:

- أغبطك!

أقول:

- على ماذا؟

تقول:

- لقد استطعتَ أنْ تُوثِّقَ ما بكَ مِنْ هول، كنَّا في أيامِنا نبتلعُ معَ الواقعِ سكِّينًا ونبتسم، لا طبيبَ ولا دواءَ ولا مُسكِّنات، تضربُنا الأيامُ بنعالِ البؤسِ ونبتسم، كأنَّنا حجارةٌ سوداء لا يهمُّها كسر، ولا يؤرِّقُها هدم!

تختفي مع الكلمات، خيالٌ يُغادرُنا إليها كلَّما أجهدَنا البكاء، أسألُ عقلي:

- بما أنَّ العدمَ قد سيطرَ على دماغي
وتبلَّلتْ أفكاري بالشُّؤم، إذن، على ماذا أخاف؟

- هل هو خوفٌ فعلًا؟ أم خشية؟ أم هو جنون!

كنتُ أريدُ أنْ أموتَ هناكَ في بلادِ الموت، لا شيءَ يجمعُني بتلكَ البقعةِ الجغرافيَّة سوى مساحة صغيرة، قد طوى الموتُ فيها أطهرَ جسدٍ عرفتُهُ في حياتي، ومِنْ أكثرِ الأجسادِ أذًى لمشاعري وعواطفي في هذهِ اللَّحظاتِ التي أمرُّ بها.

يُلحُّ عليَّ الطبيبُ كلَّ يومٍ في رسالةٍ نصيَّةٍ أنْ أكتبَ كلَّ هذا الكبتِ المتغلغلِ تحتَ زفراتِ أنفاسي، كأنَّهُ يُطالبُني أنْ أحيي مَنْ غيَّبهم الموت، أو أعيدُ للذَّاكرةِ منْ فقدتُ ملمَسهم وعطرهم، الطبيبُ خلاصةٌ أدبيَّةٌ بينَ أفواجِ الأدباءِ قبلَ أن أنهي حياتي بيدي! وأنا أريدُ الهروبَ في عجلةٍ مِن أمري مع غروبِ الأسماءِ التي لا يَعرفُ مصدرَ رطوبتِها أحد.

كتبَ لي الطَّبيبُ مساءَ اليوم:

(لا تكن أنانيًا، إذا كنتَ تريدُ الرَّحيل يمكنكَ أنْ تُغادر، ولكن لنا طلبٌ واحدٌ عندكَ:

- أتركَ لنا

نحنُ بحاجتكَ أكثر من حاجتكَ للرَّحيل)

فوبيا المتاهة البلُّوريَّة تعصرُ قواي، أريدُ بعضَ الدَّواءِ لأنصفَ الطَّريقَ نحوَ اللَّا شيء، أريدُ غراما واحدا منَ الأمانِ لأكملَ هذا الكتاب، هذا الكتابُ الذي أوصلَني إلى الفصلِ الثَّاني وما زلتُ محاطًا بكلِّ وسائل الرُّعبِ لأنَّني لم أجرؤ إلى الآنِ لأكتبَ عمَّا أردتُ البوحَ به،

كالمخدِّرات، الكحول، الحقن المخدِّرة، والجنون...

توقَّفتُ عن كلِّ شيء، أخضعُ للعلاجِ منذُ خمسةِ شهور، قالَ لي الطبيبُ عندما دخلتُ إلى المشفى في آخرِ مرَّةٍ بسببِ حادثٍ أليم:

(نريدُ أنْ نُركّبَ لكَ أنبوبًا في عروقِكَ منْ أجلِ أنْ يتغذَّى جسدُك، ولكن للأسفِ كلُّ العروقِ في جسدِكَ قد تلِفَت!)

غبتُ عن الوعي، وبعد ثماني ساعاتٍ في غرفةِ العمليَّاتِ صحوتُ على صوتِ أمِّي
وأنبوبٍ قد رُكِّبَ في حنجرتي، وجدتُ جسدي مكبَّلًا بالوصلاتِ الكهربائيَّة...
هذا أنا الذي لا أستحقُّ الحياة، الوصفُ الذي سأكتبُهُ لاحقًا في هذا الكتاب، والشُّعورُ بالذَّنبِ والعجزِ وفقدانِ السَّيطرة، كلُّ ما هنالكَ أنَّني أريدُ أنْ أعنونَ هذا الكتاب تحتَ عنوان:

(أنا آسفٌ يا أنا)

ولكنَّ فوبيا المسحوق التي استطعتُ أنْ أخرجَها مِنْ جسدي بعدَ خمسةِ شهورٍ دعتْني إلى الفوبيا والاسمِ والفعلِ والحرف.

3

(الآن تريدُ أنْ تكتبَ وأنتَ لا تَرغبُ بالكتابة)

تريدُ أنْ تكذبَ أكثرَ تحتَ مظلَّةِ الأدبِ
والفنِّ والخيالِ وقلَّةِ الحيلة، تريدُ أنْ تخترعَ موجزًا لتُخفي وجهكَ الحقيقي خلفه، حتَّى تلاقي إقبالًا من روَّاد المكتباتِ الورقيَّة والإلكترونيَّة لتَجنيَ شعاعًا افتراضيًّا بينَ كثبانِ النُّجومِ التي يَسيلُ لعابُها على شفقةِ الآلاف منَ العيونِ الشَّرهةِ للقمةِ خبزٍ مُغمَّسة بالدَّمِ خلفَ شاشاتِ الهواتفِ الذَّكية.

محاصرٌ برماحِ الواقعِ وسيوفِ الخيال، أكتبُ عنِّي وأنا مشفقٌ عليّ، كيفَ تكونُ البدايةُ لكتابةِ واقعٍ يصعبُ على المحكومِ بالإعدامِ أنْ يجدَ طريقةً للفرارِ بها مِنْ حبلِ الموتِ المتَّجهِ نحوَ العدم؟
أيُعقلُ أنَّ العدمَ مخيف؟ أم نحنُ مَن خَلقنَا شبحَ العدمِ لننجو مِنْ لعنةِ ما بعدَ الموتِ مِنْ عذابٍ وعقابٍ وحسابٍ وركامٍ مِنْ حَطبِ جهنَّم!

ماذا بعد؟

يجبُ أنْ أضعَ نقطةً في آخرِ الخيالِ لأبدأَ بموجزِ الواقعِ الذي لا مفرَّ منه، يَجبُ أنْ أبحثَ عن كتابٍ لأخلقَ المبرّراتِ وأجدَ مساحةً للكذبِ أكثر، وما عرفتُ الصِّدقَ يومًا إلَّا عندما رأيتُ شجاعةَ الممثِّل الأمريكي (روبن ويليامز)

لقد غادرَ الحياة في:
(11 أغسطس/آب عام 2014 للميلاد، عن عمرِ 63 عاما)
رجلٌ تعبَ من ارتداءِ الأقنعة، ومِنْ مراجعةِ الأطبَّاءِ السَّخيفينَ الذينَ لا يَصلحونَ للنِّقاشِ ولا للجدالِ ولا للمواضيعِ العاطفيَّة، إنَّهم أشخاصٌ لا يَقلُّون شأنًا عن الجدران، مهمَّتهم الرَّسميَّة أنْ ينهوا جلساتِهم اليوميَّة بسلام.

يقولُ ويليامز في أحدِ أفلامِه:

(ستمرُّ بأوقاتٍ عصيبة، لكنَّها ستنبِّهُكَ دائمًا إلى الأشياءِ التي لم تنتبه لها)

جميعهم يُعطونَكَ ملاحظاتٍ وإرشاداتٍ لهذهِ اللَّحظاتِ التَّعيسةِ التي يَمرُّ بها المرء، جميعهم يَستخدمونَ الوصايةَ عليكَ كي تنضمَّ إلى السَّوادِ الأعظمِ الذي يُؤمنُ بهِ مَنْ عطَّلوا أدمغتَهم مقابلَ حصولهم على الرَّاحةِ النَّفسيَّة، كلُّ ما أحتاجهُ في هذهِ اللَّحظاتِ التي تعصفُ بي تحتَ تأثيرِ الأدويةِ المضادَّة للاكتئابِ شجاعة (روبن ويليامز) لأكتبَ كلَّ ما أريدُ أنْ أتفوَّهَ بهِ لنفسي قبلَ أنْ يَعرفَ غيري، ويشيعُ باسمي للصُّحفِ مقابل تلميع اسم ودراهم معدودة، كلُّ ما أحتاجه هو أنْ أدوسَ على تبريرِ الوهمِ وخلقِ الحُجج، منَ الواجبِ على عقلي المفرط في التَّحليقِ خلفَ غيومِ الحُججِ غير المنطقيَّة، ولأرضى بما سيقولُهُ غيري عنِّي حتَّى ولو كذبًا:

(ويا سيدي ويحكوا، أصلًا حكوا أو ما حكوا ما حدا سائل عنك)

هذهِ القاعدةُ التي لا بدَّ أنْ تكونَ في ما تبقَّى منْ حياتي، اكتسابُ الثِّقةِ يَنبعُ عن الرِّضى (اِشحط فراما بلَّشت تخبص)،
هو في الأساسِ لا يوجدُ ثقةٌ ولا رضى، مِنَ الأساسِ يُحاولُ الفردُ أنْ يكونَ راضيًا عن واقعهِ وعن نفسه، وهو يمضي كل حياتهِ مُتسمِّرًا ومُتماسكًا مِنْ أجلِ الآخرين، ولكنْ طالما أنَّ الإنسانَ يَعرفُ بأنَّه سوفَ يأتي يومٌ يَفقدُ السَّيطرةَ على نفسهِ ويقعُ ضحيَّةً في شِباكِ الموت،
لماذا كلُّ هذا التَّمثيلِ والهُراءِ والتَّمسُّكِ بقشَّةٍ هيَ مَنَ ستكونُ سببًا في غرقِه؟

لنَغرَقْ إذن، نحنُ في كلِّ الأحوالِ إلى العدمِ وإنَّا إليهِ غارقون، لماذا كلُّ هذا التَّشبُّث في تلابيبِ الحياةِ ونفاياتِها؟

هذا ما جعلَني أتَّجهُ نحوَ واقعيَّةِ الحدثِ أكثر مِنْ تزيينِ الحدثِ بالكلمات وإعطاءِ الغباءِ أكثرَ مِنْ حجمه وتسديدِ الرِّمایاتِ في المَرمى الخطأِ مقابل شهرةٍ أو منصبٍ أو مال!

هنا وعلى هامشِ الخيالِ لا بدَّ للنُّقطةِ أنْ توضعَ بوضوح، أنا متمسِّكٌ بالعقلِ والمنطقِ أكثَر مِنْ إضاعةِ الوقتِ على مادَّةٍ لا معنى لها البتَّة، لا في قانونِ الوجوديَّة، ولا في دستورِ العدميَّة.
حُثالةُ تكهُّناتٍ مبنيَّةٌ على عواطِف مأجورةٍ لمصالحِ أشخاصٍ عبيدٍ بكلِّ معنى الكلمة، ونادرًا ما تجدُ الفردَ قد فصلَ العبوديَّةَ عن المعبودِ وحكَّمَ لغةَ العقل، حتَّى الذينَ يُعظِّمونَ العقلَ هم عبيد النَّظريَّاتِ المنطقيَّة، ولو ركَّزتَ بتفاصيلِ حياتِهم اليوميَّة الواقعة ستجدُهم إمَّا يُهاجِمونَ أو مُهَاجَمون، وتجدُ التَّرفُّعَ عن

معركةِ القتال نادرًا ما يبتعدونَ عنه، ولو ابتعدوا قليلًا عن هذهِ المعركةِ سوفَ يُصابونَ باكتئابٍ حادٍّ يجلدهمْ في ليلِهم ونهارِهم.

جلْدُ العقلِ لعبيدِ المنطقِ أسوأُ مِنْ جلدِ الحرِّ للعبد، كما كانَ في أيَّامِ الجاهليَّةِ كما قرَأنا آنفا، أنا في خِضمِّ هذا المحيطِ الفكريِّ حولَ ملايينِ القدامى والمعاصرين منَ المفكِّرينَ والباحثينَ تحتَ مياهِ التَّنوير، بينما في عقولِ متبنِّي الإيمان فإنَّهُ ضلالٌ وخروجٌ مِنْ تحتِ رداءِ العباءةِ الإلهيَّة!

المؤمنونَ سلَّموا عقولَهم للغيبِ والخيال، قد أَوجَدوا المبرِّراتِ لكلِّ خللٍ داخلَ إيمانهم، يُذكِّرُني ذلك بـــ:

(مباحث الإعجاز العلمي)

إيمانُهم ليسَ بينَهُ وبينَ العقلِ أي قواسم مشتركة، لذلكَ ما يُسمَّى بعلماءِ البحثِ العلميِّ يَصِلونَ اللَّيلَ بالنَّهار ليَجدوا بيضةً قد كُتبَ اسمُ الآلهةِ عليها، أو بقرةً كنديَّةً قد كُتبَ اسمُ قدِّيسٍ على جلدِها،
ويحاولونَ أنْ يَشقُّوا طريقَ الخيالِ بواقعيَّةٍ غبيَّة ليتلاعبوا بعقولِ النَّاسِ الغارقينَ بالعواطف.

صاحبُ الدِّماغِ السَّليمِ سوفَ يُواجهُ الواقعَ وحدَه، لا شريكَ لهُ سوى المنطق، سوفَ يَدخلُ بحالاتٍ منَ التَّوتُّرِ والقلق، سينتابُهُ شعورُ الوحدةِ والانطواءِ على

ذاتِه، لأنَّهُ يعتقدُ أنَّ مَنْ حولَهُ هم أقل منهُ شأنًا في التَّفكيرِ وفَهمِ الواقع، سوفَ يَستحقرُ وجودَهُ في الحياةِ التي أتى إليها مُكرهًا ومرغمًا بخطأٍ جنسيٍّ وقعَ بهِ وغدانِ يُطلقُ عليهما أبوان، ليكملَ مسلسلَ ما خلَّفَهُ البشرُ مِنْ عثراتٍ وأخطاءٍ جنسيَّةٍ وجينيَّة.

مَنْ تسبَّبَ لنا بهذا الألم؟

(جمَعْنا أخطاءً جنسيَّةً أفسدَتْ على الطَّبيعةِ حياتَها)

حتَّى أصبَحْنا نتبجَّحُ بالطَّريقة التي بعضُنا يقتلُ بها بعضا، لنجاري منْ يشبهُنا في الشَّكلِ والعقل، مَنْ هوَ الأقوى ومَنْ سوفَ يَبقى؟ نُسلِّمُ مواثيقَ الدَّمِ والكراهيَّةِ والتَّطرُّفِ للأجيال، كأنَّنا نُسلِّمُ عقولَنا المُترسة بالمدافعِ والقنابلِ المؤقَّتةِ والفكرِ الملوَّث بالدَّم،
نحنُ مجرمونَ بالجملةِ مهما حاولنا ارتداءَ ثوب الأنسنةِ إذا صحَّ التَّعبير، هذا الثوبُ بالتَّحديدِ لا يَليقُ بنا، طالما أنَّ الأفكارَ والوصايةَ تتوارثُ مِنْ عقلٍ مُتجبِّر، لعقلٍ متكبَّر، لطفلٍ أعطوهُ صلاحيَّةً ليَقتلَ مَنْ يشاءُ تحتَ غطاءِ الثَّأر والانتقامِ لمنْ سبقَهُ مِنْ أناسٍ مجرمين، هم يُريدونَنا أنْ نَقتتِلَ ونُدميَ بعضنا تكريمًا لجثثِهم المتفسِّخةِ تحتَ الأرضِ أو في نيرانِ المحارق!

مُجرمونَ لم نعُدْ نستوعبُ عقولَنا، لهذا السَّببِ مَنْ يُواجهُ الواقعَ بالعقلِ والمنطقِ سوفَ يَصطدمُ بالبؤسِ والأمراضِ النَّفسيَّةِ لأنَّها شيءٌ طبيعيٌّ جدًّا،

يَكفي أنَّ مَنْ يُفكِّرُ بعقلِه ليستْ نواياهُ دمويةً كما يُفكِّرُ المؤمنُ الذي يُظهِرُ الحبَّ تارةً وتارةً أخرى يَفتعلُ الكراهيَّةَ لينتقمَ لآلهةٍ ليسَ لديها القدرة للدِّفاعِ عن حرمتِها، الانخراطُ في وحلِ العدمِ إنْ لم يَكنْ بهِ تدبرٌ يقودُ إلى خرابِ المخدِّراتِ

والكحولِ كي يَنسى، إنَّه فَقْد الثِّقةِ بالإيمانِ والواقعِ والخيال، لا أُعطي مبررات، بل أتحدَّثُ عمَّا حدَثَ معي، وما أفكِّرُ بهِ بعدَ تركِ تلكَ الكارثةِ التي سوفَ أفصِّلُها في كتابِ الفوبيا ما بعدَ التَّرك.

أنا أشعرُ بتحسُّنٍ لأنَّ لديَّ بعض القدرةِ لكتابةِ شيءٍ حقيقيٍّ حدَثَ معي،
أنا أثقُ بمَنْ يُدقِّقُ هذا الكتاب، لأنَّهُ نفَثَ بي بعضَ الإيمانِ لأكتبَ الحقيقةَ،

الحقيقة التي لم يَستطعْ روبن ويليامز مواجهتها!

4

(التَّشاؤمُ يمنحُنا تَذكرةَ عودةٍ إلى الجحيمِ المبني على الإيمانِ المُطلقِ بالخيال)

مِنْ أوَّلها، ومِنْ غيرِ لفٍّ ولا دوران، ودونَ أنْ نضعَ نقطةً في نهايةِ السَّطر، ولا فواصل بتدوّخ راسنا، ودونَ دراما هذهِ الأيَّام، شو بدَّك بالحكي (التَّشاؤُم آخرُ ما توصَّل له القرفُ مِنْ عجزٍ على كافَّةِ الأصعدة)
وعلى سيرةِ الأصعدة، كلُّ المؤشّراتِ عندي توصلُ للجحيم، بس يا حزرك مع شو؟

مع تذكرةِ عودةٍ وكأسٍ مِنْ شايِ الغزالينِ وكمشةِ خيارات، ألم تعرف الخيال؟

إنَّهُ عكس الواقعِ تماما، يشبهُ شخاخَ الكلابِ أو شخاخَ البشرِ لأنَّهُ مِنْ نفسِ اللَّون، لا تَسألني عن الطَّعمِ لكنَّهُ بذاتِ الرَّائحة، رائحة سيناريو حقيقي مع نشا باطون مع نكهةِ مستودعِ صيدليَّةٍ في آخرِ الحارة!

ليست حارتي طبعا، أنا وصلتُ للحارةِ التي أقيمُ فيها حاليًّا في جمهوريَّةِ النِّمسا في العاصمةِ فيينا، في الحيِّ السَّابع، في شارعِ كانيون، البناء رقم (11)

قبل خمسِ سنوات، كنتُ شخصًا طبيعيًّا متل ما بيحكوا، مين يلّي بيحكوا؟

جماعةٌ يوصفونَ بأنَّهم (ناس) يميّزهم أنَّ لهم عقلا، لكنَّ عقولَ النَّاسِ تتفاوتُ بطريقةِ تفكيرِها لمعنى الحياة،

كيف بدَّك تعبر الحياة؟

شو بدَّك تعمل بالحياة؟

لماذا وجودكَ بالحياة!

لقتالِك، لاستسلامِك، لحبّك، لبغضِك لفهمِك، لنعمتِك، لنقمتِك، لفسفستِك، لفنّك، لاستراتيجيَّتِك، لبقائِك، لرحيلِك!

بالوقتِ الذي يجبُ أنْ تفهمَ بهِ أنَّكَ لن تبقى فيها مهما طالَ أجلُك، ستعرفُ كيفَ تَفصِلُ بين الواقعِ والخيال، وستعرفُ أنَّكَ مهما صنعتَ وصرتَ وتصوَّرت، كل ما صنعتَ هو تحتَ ركيزة: (لا فائدة منه)

مِن هنا، تبدأُ بالانهيارِ شيئًا فشيئًا،

أمامكَ كمشة لازماتٍ تريدُ أنْ تتخطَّاها مِنْ أجلِ لا شيء، كل الذي تريدهُ أنْ تهربَ منَ المواجهةِ التي ليسَ لها فائدة لا مِنْ قريبٍ ولا مِنْ بعيد.

تُلقي نظرةٍ على الذَّاكرة، أو دعنا نكونُ واضحينَ...

على تفاصيلِ الماضي، يكونُ كلُّ تركيزِنا على التَّفاصيل التي نحاولُ جاهدينَ أنْ ننساها، لكن للأسف، هذه التَّفاصيل تحديدًا تكونُ كمطرقةٍ تضربُ أعصابَ أدمغتنا، وتؤثِّر سلباً على تنفُّسِنا، ثمَّ مهمَّةُ الصدرِ أنْ يحملَ كلَّ هذا الثِّقل، فندخلُ بمعركةِ نريدُ فيها أنْ نرتاحَ مِنْ أساسِ هذهِ المَكَنة التي طحنَتْ

قِوانا طحنا، المصيبةُ الأكبرُ أننا بدل إيجاد الحل لمعضلتنا، نكابرُ على أوجاعِنا ونؤدِّي دورَ (الشخص المثالي والقوي الذي لا يُهزم)
وعا تعوا شوفونا، وننتقلُ مِنْ سيناريو لسيناريو متجاوزينَ كلَّ التَّفاصيلِ التي لم يستطع تجاوزها ما يُسمَّى: (ورم الأعصاب) إنَّه ورمٌ غير مرئي مصدره التَّفاصيل التي لم نستطِعْ نسيانَها!

كانَ هناكَ احتمالاتٌ لنخرُجَ مِنْ مأزقِ الماضي:
الطبيبُ النَّفسيُّ مثلًا!
الفضفضةُ مع شخصٍ نحبُّهُ ونثقُ به. الابتعادُ أو العزلةُ الإيجابيَّة.
الطَّبيعة.
الأدوية بوصفةِ طبيب.
المعالجةُ الرُّوحيَّة (لو إني ما بؤمن فيها)

لو سمعتَ كلامَ النَّاسِ إنو (لا تروح عا طبيب شو أنت مختل عقليًّا) ولم تذهبْ ستصلُ لمرحلةِ الجنون، الانعزاليَّة، السَّلبيَّة، الهوَس، فقدان الشَّهيَّة، القلق، التَّوتر، عدم المقدرةِ على النَّوم، الأرق، الاكتئاب الحاد، الاكتئاب السَّريري،
والتَّفكير بالانتحار، ثمَّ لا شعوريًّا: (باي)

أنا أكتبُ هذا الكتابَ في مرحلةِ ما قبل الباي، إنَّها مرحلةُ تأنيبِ الضَّمير، على ماذا كنتُ أتوجَّع؟ ومِنْ أجلِ مَن؟ ولماذا؟
وإلى أين أنا ذاهب؟ وبعدين!

أكتبُ وكأنَّني كنتُ سعيدًا بما قبل البعدين!
تعاطي المخدِّرات حتَّى لا أشعرَ بتفاصيلِ الماضي التي لم تنصفْني يوما، إدمانُ الكحولِ لأنسى كلَّ الأشياءِ التي يجبُ أن أنساها!
ألَّا أذهبَ لأيِّ طبيبٍ كي لا يَظنني النَّاسُ مَجنونًا أو مُختلًّا عقلياً على حسبِ روايةِ المجتمع الزبالة يلي بخليك توصل لهون!

لو تشحط فرام وتفكر منيح وتمر بماوس الشَّاشةِ الزَّمنيَّةِ على ماضيك وتتأكد مِنْ وجودِ الأشخاصِ الذينَ كانوا حولكَ بمثابةِ أصدقاء، سوف تتأكَّدُ أنَّهم ليسوا أصدقاءَ بحسبِ ما أكَّدَ لي الطَّبيبُ النَّفسي، إنَّهم لا شيء ، أنتَ وضعتَهم مبرِّرًا لتدخلَ طريقًا لم يجبركَ أحدٌ عليها، كلُّ ما في الأمرِ كان اختيارك، اخترتَ وأطَّرتَ الاختيارَ بمبرراتٍ تحتَ مُسمَّى (تجرُبة، هروب، نزوة، اكتشاف، محاولة ثمَّ إدمان)

وللصُّدفة، في الوقتِ الذي نويتُ فيهِ تركَ الإدمانِ على المخدِّراتِ والكحول، اجتاحَ كوكبَنا على حسبِ ما بيحكوا البشر فايروس كورونا بحسنتك، وبدأتَ تعرفُ كيفَ تُفصِّل واقعكَ الذي استطعتَ بكلِّ سهولةٍ أن تُدمِّرَ نفسكَ فيهِ بسببِ خيالِكَ الذي أوصلَكَ لهذهِ المرحلة الجميلة، سأسمِّيها (جميلة) على اسمِ خالتي جميلة، لأنَّها أيقظَتني مِنْ كابوسٍ غبيٍّ حقيقيٍّ كنتُ فيهِ المجرم والضَّحيَّة، والفاعل والمفعول به، لكومةِ أخطاءٍ بخجلٍ يَرتكبُها المراهقون...

نضعفُ أمامَ كلِّ التَّفاصيلِ التي مرَّتْ معنا، نضعفُ للنَّزوةِ والشَّهوةِ والتَّكبرِ والكبرياءِ والوجاهةِ والمالِ والبنون الذين لم أرَهُم، نضعفُ لأنَّ تركيبَتَنا البشريَّة مبرمجة على الضَّعفِ والخيالِ والدراما، ننقادُ مِنْ غيرِ أنْ نلجأَ للعقل، وإنْ حكَّمناهُ نفرطُ بالتَّفكيرِ الواقعيِّ الذي يقودُنا لسؤالٍ جميعنا لا نعلمُ إجابتَه:

(إنو نحن ليش عايشن؟)

لماذا كل هذا؟

السُّؤالُ الذي نخافُ أنْ نجيبَ عليهِ مِنْ أجلِ الآلهة، مِنْ أجلِ ألَّا تتبخَّرَ نزواتِنا وشهواتِنا، مِنْ أجلِ ألَّا تنضربَ مصالحنا، من أجل ألَّا ندوسَ على ما تربَّينا عليهِ مثلما تدوسُ كلُّ البشريَّةِ بعضَها، مِنْ أجلِ المادَّةِ التي نجري وراءَها طولَ عمرِنا

وبمجرَّدِ أنْ نمتلكَها نضعف، ويُقررُّ الموتُ أنْ يستضيفَنا، أو العدمُ الذي لا يجرؤُ أحدٌ على التَّرشُّحِ له، والتَّحدُّثِ باسمِه!

كلو مشان جواب السؤال يلي بقول:

(إنو نحن ليش عايشن ؟)

أتذكَّرُ قبلَ ثلاثِ سنوات، كهذهِ الأيَّامِ بالضَّبط مِنْ شهرِ ديسمبر، كانَ بيتي تكيَّةً سليمانيَّة للنَّاس، مفتوحًا بخدمةِ عشر نجوم، كنتُ دونَ مبالغةٍ أكرّسُ وقتَ استراحتي للمكالماتِ التي تأتيني باستمرار:

- ألو زهير لك وينك يا زلمة؟

- ألو أنا بالمكتبة، خير شو في؟

- اليوم المسا جايين لعندك، لا تقلي عندك شيء!

- لا أبدا ما عندي أي شيء!

- لا تجيب شي ها، جايبين مشروبنا معنا وجايين!

تنتهي المكالمة...
وتحتَ مظلَّةِ الثَّقافة وأكلِ الخرا، ولأنَّ الجماعةَ محسوبونَ على الصُّحبةِ الثَّقافية، وجماعةِ الكلمةِ الدَّلاليَّة على طيزي...

كانَ البيتُ يُقلَبُ لبارٍ مِنَ الخمور، أمرٌ غيرُ مُعتادٍ عليه، تجربةٌ مِنْ أجلِ الشُّعور بنشوةِ المشروب، مع احترامي للذين يشربون، كأنك شارب بانزين، تَستيقظُ من بعدِهِ وقد تكسَّرَ جسمُكَ بأكملِهِ تكسيرا، وليسَ باستطاعتِكَ أنْ تحملَ رأسَكَ الثَّقيل، تخيَّلْ كنتُ أطلقُ عليهِم: (أصحاب، أصدقاء، إخوة الغربة، خرا...)

هذهِ القلَّةُ اليومَ تحديدًا أخبرَني الطَّبيبُ النَّفسيُّ بأنَّهم ليسوا أصدقاء، بل وهمٌ راحل، لكنَّكَ ما زلتَ مُصمِّمًا على تسميتِهم أصدقاء، لقد تركوا فيكَ تفاصيلَ مؤلمةً جدّا، هذهِ التَّفاصيلُ خلفَتْ لكَ مبرِّراتٍ لتدخلَ في عالمٍ آخر هو: الإدمان!

الإدمانُ الذي أعلنتَ التَّوقُّفَ عنهُ في بدايةِ (2020) لأنَّه زرعَ فيكَ مقوّماتٍ ما كانت موجودة بالأساس:

(الجرأة، الوقاحة، الواقعيَّة، التَّعقُّل، التَّفكُّر، الانعزاليَّة، القوَّة، وَضْعُ كل شيءٍ في مكانهِ حتى لو رفضهُ الآخرون، الصِّدق، عدمُ الانحيازِ لأحد، اختيار الطَّريق التي ترغبُ بها، اللا مبالاة،
واكتئابٌ ملازمٌ مع محاولةِ الطَّاقم الطبي لإخراجهِ منك)

هنا فقط سوفَ تكتشفُ مَنْ يكملُ معكَ

ومَنْ يرحلُ عنك، صحيحٌ أنَّكَ غير مبال، لكنَّكَ تبتسمُ مع أنَّكَ شخصٌ غير مرغوبٍ بك، تجدُ أشخاصًا -ولو افتراضيين- يُشبهونَك بكلِّ ما وصفتَهُ سابقا، يُحبُّونَكَ لأنَّكَ هكذا، دونَ تصنُّع، لا تُؤذي أحدا، مُترفِّعٌ عن كلِّ هذا القرفِ الذي تخوضُ فيهِ الكثبانُ الجنونيَّة، والحيواناتُ المتطفِّلةُ على الأخبار السَّريعة،

مع أنَّكَ خسرتَ كلَّ مُؤهِّلاتِ التَّصنُّعِ لكن مهما حاولتَ الغوص في الخيالِ ستصلُ لقاعِ الواقع، لتلقى نفسكَ أخيرا!

حتَّى لو أمسكتَ تَذكرةً توصلكَ لجهنَّمَ الخيال، لا تنسَ اختياركَ لطريقِ العقلِ الذي يُميّزُ البشرَ العقلانيينَ عن البشرِ البقر، وما خابَ مَنْ وصفَكم بمقولة:

(راح تضلوا بقر)

5

(مِقياسُ الوعيِ بالنِّسبةِ لي: أنْ تَكونَ في أعلى درجاتِ البُرودة، في حالِ استفزازكَ بكلِّ الوسائل)

جميعُ النَّاسِ لديهم مبرّراتهم لكي ينتقموا مِنْ واقعٍ أو مِنْ وَهْم، لدينا إفراطٌ مُبكِّرٌ في الرَّدِّ لكلِّ شيءٍ يُؤذي مشاعرَنا، أو يَجرحُ خصوصيَّتِنا، أو يَمسُّ مادَّةً مَلموسةً أو مَحسوسة، تكونُ المادةُ وهميَّةً في أدمغتِنا كشعرةٍ غير مرئيَّة في مُؤخِّرةِ خنزيرٍ أليفٍ لديه حريَّة مقيَّدة في مزرعةٍ دينماركيَّة، مادَّةٌ تُلقَّنُ وتُدفَعُ مِنْ أوصياءَ علينا منذُ الصِّغرِ في كلِّ مناهجِ الحياة، ننتعلُها كعقيدةٍ أو إيمانٍ أو قوميَّةٍ أو قبليَّةٍ مِنْ غيرِ أنْ نُفكِّر بما تلقَّيناه،
مادَّةٌ محاطةٌ بالأحقادِ والكراهيَّةِ والعنصريَّةِ والتَّطرُّفِ وحبِّ الأنا،
مادَّةٌ مدروسةٌ بحنكةٍ عُقِدتْ عليها طلاسمُ الشَّرِّ والخداعِ والكذب،
مادَّةٌ وهميَّةٌ دُسَّ فيها سمُّ الأوَّلينَ
والآخِرينَ ومَنْ سبَقُونا إلى دارِ الحقِّ كما يُطلِقُون عليها، مادةٌ نمتنعُ عن الغوصِ فيها لمليون عقدةٍ مُدجَّجةٍ بالخرافاتِ والخزعبلات، مادَّةٌ كمدخلٍ لكلِّ المبرّراتِ التي جنيناها منذُ الصِّغرِ حتَّى يُطلقَ علينا بالغين.

أنا لستُ مُلزمًا أنْ أحملَ في رأسي كلَّ هذا القرفِ المُتوارَثِ مِنْ مُؤخِّرةِ غبيٍّ لرأسِ غبيٍّ آخَر، وكلَّما فكَّرتُ بتلكَ الأحمالِ التي حمَّلونا إيَّاها مِنْ غيرِ أنْ يَأخذوا رأيَنا بها، أو أنْ يَتركوا لنا مِساحةَ نقاشٍ صغيرةٍ كي نَعرفَ أينَ تَسير؟ وأينَ نهايةُ هذا الطَّريق؟

لديَّ نرجسيَّةٌ عمياءُ بأنْ أُمسكَ سوطًا
وأجلدُهم بكلِّ ما تبقَّى مِنْ قِوايَ حتَّى تتمزقَ جلودَهُم، وتتراشقَ دماءَهُم على وجهي، نرجسيَّةٌ بأنْ أطَأَ على رؤوسِهم بحذائي، وأركلَهُم حتَّى أشفى مِنْ جرحي الذي في صدري، كلَّما كبِرتُ يومًا يَكبرُ هذا الجرحُ ويَزدادُ تورُّمهُ فأبكي وأسألُ:

لماذا يَحصلُ معي كل هذا؟

- إنَّها ذروةُ الوعي!

لا يُمكنُ أَنْ تُضيفَ فوقَ تجاربِكَ تجربةً أخرى (كإرادتكَ بأنْ تتخلَّصَ مِنْ هذا الألمِ بالانتحار)
لأنَّكَ أنتَ الذي كُنتَ تَبحثُ عنهُ ووجدتَه، ولم يَعدْ لكَ أي عذرٍ بالبقاءِ بينَ مَنْ يدَّعونَ أنَّهم أحياء.

بدأتُ بالبحثِ عن الأشياء التي تَستفزُّني وتغيظُني بينَ كلِّ الملفَّاتِ المُتلفةِ التي أُطلِقُ عليها: (ذكريات)
الحياةُ البسيطةُ التي عشتُها في درعا البلد، أو والدي الذي كانَ لا يُفكِّر إلا بنا،
وبأنْ نعيشَ يومَنا وألَّا نفكِّرَ بغد،
أو بإخوتي الذينَ كانت أحلامُهم تُجدِّفُ عكسَ كل هذا الواقع القذِر، أو بالفقر المُدقعِ الذي كانَ أجملَ بكثيرٍ مِنْ واقعي الحالي!

لم تَكنْ لديَّ همومٌ مصيريَّة، كانَتْ لديَّ أحلامٌ تُعارضُ كلَّ مَنْ حولي، التَّجبُّرُ المبنيُّ على عدمِ الإدراكِ والوعي، خلقُ طرفٍ وهميٍّ يُريدُ أنْ يُطفئَ نوري، ليس لديَّ نورٌ ولكنْ خلقتُهُ بنفسي، وصنعتُ جيشًا مِنْ خيال، كلُّ همِّه أنْ يُحطِّمَني.

ليسَ هناكَ أقسى مِنْ أنْ تَكتبَ الحقيقةَ مِنْ أجلِ أنْ تُثبتَ لضعفِكَ بأنَّكَ قوي، أنتَ الآنَ تَكتبُ ما يَستفزُّك!
أنتَ تكتبُ كلَّ ما تَكرهُ أنْ يُنسبَ إليك.

قالَ لي أبي كلامًا إلى الآن أحملُ همَّه:

كانَت في غرفةِ جدَّتي صورةً لشابٍّ وسيمٍ ذو شعرٍ طويل، وسامته لا توصف وبينَ ملامحِهِ صمتٌ رهيب،
تطرفٌ يَغزو ذاكرةَ كلَّ مَنْ يَعرفهُ بصوتٍ عابرٍ لتلكَ الغرفة، حيثُ يقول:

- لا تنسوني!

في صبيحةِ كلِّ عيدٍ كانت أوَّل مَنْ يَدخلُ على الجدَّةِ مع تكبيراتِ الأعياد، خِفَّةُ روحٍ تهبطُ في قلبي منَ الطَّابقِ الثَّاني إلى الطَّابقِ الأرضي، حيثُ البيت الكبير للعائلة، رائحةُ الخبز، الحلويات، والأمواتُ في كلِّ تفاصيلِ الأحياء، كلُّ الماضي كانَ يَغزو عقولَ الأحياءِ في السَّاعاتِ الأولى لأوَّلِ يومِ عيد،

أطرقُ البابَ وأدخل، جدّي يُجهّزُ نفسَهُ للذّهابِ إلى المقبرة، أقبّلُ رأسَهُ ويدَه، جدّي الذي يُذكّرُني بأنَّ لا أحدَ هنا، أدخلُ الغرفةَ إلى الجدَّةِ الجالسةِ تحتَ الصُّورة، دموعها تشي بأنَّ العيدَ ليسَ عيدنا، والفرحَ ليسَ فرحنا، وعظَّمَ اللهُ أجرَنا، تلمحُني مقتحمًا حزنَها، وبطرفِ كمِّها تمسحُ آثارَ الجريمة- جريمة البكاء في صبيحةِ يومِ العيد- وفي ذاكرةِ أبناءٍ عشرة لم يَكبروا في قلبِها، أخشى مِنْ وجهِها الشّاحب، وارتمي لأقبّلَ رأسَها
ويدَها، ومع أنَّ بعضَ مواقفِها غيرُ لائقٍ كانَ أبي يجلُّها ويعظِّمُ شأنَها لأنَّها تحملُ شيئًا لم يكنْ لديَّ معرفة به!

- كلّ عامٍ و أنتِ بخير.

تقبّلُني وتضمُّني وترى ثيابي الجديدةَ
وتبتسم:

- حلوة ثيابك يمة.

في مساءِ ذلكَ اليوم، سألتُ أبي عن غرفةِ الجدَّة، والصُّور المعلَّقة، والشَّابِ الوسيمِ
والصَّمتِ المفرطِ في بيتِها وعنِّي، ما سرُّ علاقتي بهذا كلّه؟

- إنَّه عمُّك، أسميتُكَ على اسمِه، كانَ يَدرسُ الحقوقَ في جامعةِ دمشق، أنتَ نسخة عنه، قتلوهُ في لبنانَ تحتَ تصفيةٍ سياسيَّة، انتمى لمكان لا يُشبِهه...

فكرٌ مُتوارثٌ علمانيٌّ قوميٌّ يَزحفُ خلفَ الخيال...

أنا لديَّ اسمٌ لم أختَرْه، اسمٌ لشخصٍ آخر، وجودي هُنا ذكرى لشبحٍ مقتولٍ تحتَ مِظلَّةٍ سياسيَّةٍ علمانيَّةٍ مجهولة العُمق، سوى أنَّها كانت شريكةً في إغراقي بدمٍ باردٍ لا أعرفُ مُنتهاه،
مَنْ أنا لأكونَ ذكرى مؤلمةً في مخيّلةِ عائلةٍ مقتولة بكاتمِ صمتٍ مُرعب! ولكي يُطلَقَ عليَّ (بتشبه عمَّك زهير) وأنا اليوم عمٌّ لثلاثةٍ مِنْ أبناءِ أخوتي ابتعدتُ عنهم برضًى منّي، عندما أتَّصلُ بإخوتي وأرى أبناءَهم أشعرُ بأنَّهم لا يَعرفونني! أنا شخصٌ لستُ منهم، ولم ألمسْ أحدًا منهم، شخصٌ مِنْ ورق أُذكَرُ في محافلِ التَّأبين، في داخلي أربعُ أرواح:
روحي، روحُ عمّي، روحُ أبي، وروحُ أمّي، أربعُ أرواحٍ يَتناوبنَ على كلِّ قراراتي التي أوصلتْني أنْ أفقدَ عقلي ذاتَ ضعفٍ في زمنِ الإدمان، وقد تخلَّصتُ مِنْ كلِّ شيءٍ بعدَ ذلك.

لم أعُد مُدمنًا على المخدِّرات اليوم، ليسَ دفاعًا ولا نصرًا ولا خوفًا ولا رجاءً مِنْ أحد، ولكنْ لم يَعُدْ لديَّ الرَّغبة في أنْ أستمرَّ بالإدمان، لم أعُد مُدمنًا على الكحول، ولا تدخينِ الشّيشة، لأنَّني فقدتُ الرَّغبةَ واللّذة، حتى اللُّحوم التي كانتْ مِنْ أساسيَّاتِ الأغذيةِ التي أتناولُها يوميًّا ما عادتْ تهمُّني...
أنْ أمشيَ في الطُّرقاتِ وأخالطَ النَّاس،
لم أعُدْ أرغبُ في ذلك كلِّه، ولم يَعُد لديَّ أصدقاء، حتَّى مَنْ كانَ يُزعجُني ويصفُني بما لا يوصفُ لم يَعُد يَستفزُّني، ولم أعُدْ أشعرُ بشيءٍ سوى أنْ أكتبَ

كلَّ ما يَدورُ في عقلي، مِنْ لحظةِ وعيٍ غير مركَّبة، مِنْ تركيبةِ الخيالِ والكذب.

أبي الذي صدمَني بأنَّني هُنا لأكونَ ذكرى لهم، لم تعُدْ هذهِ الصَّدمةُ تُؤلمُني، لأنَّني ببساطةٍ تبرمجتُ كما يُريدون، وكنتُ مخيّبًا لكلِّ ما كانوا يتوقَّعون.
في سنَتي الثَّالثةِ والثَّلاثين استيقظتُ فجأةً وجدتُ نفسي محاصرًا بكلِّ الذَّاكرةِ التي حطمتُها بغيرِ قصد، لأنَّ الوعيَ لم يكنْ مِنْ حليفي وقتها.

فوبيا عدم الاكتراثِ بما كانَ وبما سيكون، فوبيا لعلِّي أكتبُها كما أريدُها أنا، لا لأكونَ ذكرى في رأسِ عائلةٍ تبخَّرتْ فجأةً بعدَ أن دُمِّرتْ سوريَّة بأكملِها.

6

(الكل مستقوي على الحمار، شو الحمار مش بني آدم!)

القائل: توفيق في مسلسل الخربة.

بعد أربعةِ وثلاثينَ عامًا منَ الذَّاكرة أعلَمُ اليوم لأوَّلِ مرَّةٍ أنَّ طريقةَ تَلَقِّينا للمعلومةِ كانت وما زالت جائرة، وأنَّ تطبيقَنا للمعلومةِ كانَ وما زالَ أشدّ جورا، وأنَّ مَنْ علَّمَنا أعطانا المعلومةَ عن حُسنِ نيَّة على ذمَّة الرَّاوي، وربَّما لسببٍ واحدٍ فقط هو أنَّ المعلومةَ فُرضتْ عليهِ فرضا، لأن لا بدائل لديهِ سوى أنْ يذهبَ الوصيُّ على تربيتِنا إلى ما وراء الشَّمس، يعني (بيت خالتو) أو (المخابرات الدَّاخلية)
فكانت المعلومةُ تأتينا بطريقةٍ مموَّهةٍ
ومشوَّهةٍ وضبابيَّة، عليها تسعمئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ لاصقَ ألتكو بنسبةِ (99%) مِن أجلِ ألَّا تظهرَ حقيقتها، وبالنِّسبةِ لحقيقتِها تُركتْ لنا نسبة (1%) لنفكِّرَ ونكتشفَ الإبرةَ تحتَ كومةِ القشّ التي تصلُ ذروتُها إلى بؤسِنا!
تركوا لنا نسبةَ (حلم إبليس بالجنَّة)
يعني بالمختصرِ تركوا لنا الأحلامَ ولكن يَجبُ بين الفينةِ والفينةِ التَّأكُّد مِن غازِ الأحلام، لألَّا يتسرَّبَ إلى أرضيَّةِ الواقعِ لأنَّنا سوفَ نختنقُ ونموتُ بالجُملة!

يعني منَ الممكنِ أنْ تَعقدَ القرانَ بينَ الأحلامِ واللُّغةِ والقاسم المشترك بينهما كلا الأمرين ليس لديهِ حدود، فضاءٌ واسعٌ لا نظيرَ له،
في الحلمِ تَسرحُ بقطيعٍ مِنَ الغنمِ والعددِ الذي تريدُه، وفي اللُّغة أيضًا تَنقضُّ على الغنمِ بعددٍ الذِّئابِ التي تريدُها، وباستطاعتكَ أنْ تَستبدلَ كلمةَ حدودٍ بكلمةِ (شطَحَ) فتشطحُ وتَبني وتَهدمُ بينكَ وبينَ لغتِكَ العربيَّةِ والصُّندوقِ العظميّ الذي تحملُهُ بينَ كتفيك!

سوفَ أقولُ لكَ كيفَ ذلكَ ولكَ بعدها أنْ تسألَني: كيف؟

حلو! سألتني كيف!

مِنْ لوازمِ الشَّطحِ بينَ الحلمِ واللُّغةِ أنْ تَبحثَ عن مجموعةِ لوازم لكلِّ بادرةٍ تقومُ بها مفروضة كانت أو طوعيَّة،
اللَّوازمُ تحتاجُ إلى شمَّاعة، والشمَّاعةُ جاهزةٌ ولكنْ لا تستطيعُ البوحَ بها، لأنَّها طرفُ الفتيلِ الذي سيأخذُكَ إلى ما خلف الشَّمس، والبدايةُ تكونُ بأمرٍ معلومٍ لدى كلِّ فردٍ يعيشُ في قبضةِ الجغرافيا العربيَّة،
مثلًا (مطلوب) حجمُ هذهِ الكلمة يُضاعفُ حجمَ مليون جملة، إلَّا أنَّها جملةٌ فعلا،
وهذهِ الجملة مفرَّعة لأبعدِ الحدود، مضاعفاتُها ما بينَ نفضةٍ في الجهازِ العصبيّ إلى الموتِ بسكتةٍ قلبيَّة، ودعني أسوقُ لكَ الوصفَ الذي بُنيَ على إيمان (أنتَ وقدرك) وإرضاءِ غيرِ الإيمانيين (أنت وحظك) مِنْ هُنا يَبدأُ برنامجُ الرُّعبِ الذي تبثُّه الجزيرة:

(أين اختفت الجثة؟)

لحظة!

ليسَ لهذهِ الدَّرجة، لأنَّكَ في كلِّ الأحوالِ سوفَ تختفي، قبلَ أنْ تُسلِّم جثَّتكَ لبيتِ خالتِك، وبعدَ أنْ تخرجَ مِنْ بيتِ خالتِك، حتَّى لو بعد ثلاثمئة عامٍ سوفَ تتبخَّر

ولن تكونَ موجودًا أبدا!

لو افترضنا جدلًا أنَّ هذا ما سيحدثُ فعلًا، بأنَّنا سنتبخَّرُ بعد مئةِ عام، لماذا نقتلُ المكنةَ الدماغيَّةَ في لحظةِ طَلبِنا لبيتِ خالتِنا أكثر مِنَ اللَّحظةِ التي سوفَ نغادرُ بها الحياة؟

هل رأيتَ كيفَ اجتمعَ الحلمُ واللُّغةُ على سطرٍ واحد، ووثَّقوا حالةَ الشَّطح رغم كلِّ ما ذكرتُهُ آنفًا عن الواقعِ والحقيقة؟

الرُّؤيةُ لا تكفي للتَّوثيقِ والسَّمعِ والتَّذوقِ ولا حتَّى وجود العقل.

مِنْ بابِ الأمانةِ العلميَّة (التَّمييز) هو الفعلُ الأكثر صدارةً على ترندِ الحواس بل أعلاها استخدامًا!

هذا ما جعلَ تلقِّينا للمعلومةِ كتلقِّي الحيواناتِ الأليفةِ المعلومة مِنْ ربِّها، هم لم يستطيعوا إعاقةَ حواسِنا ليسَ لأنَّهم غير قادرين، إنَّهم قادرونَ ولكن في المكانِ والزَّمانِ المناسبَين، بعدَ أنْ يَطلبوكَ ولا تتجاوب معهم وكلَّما تأخرتَ بالاستجابةِ يضغطونَ على حواسِكَ بطريقةٍ مؤلمة (أليس اسمُها حواس!)

فيهرسونَها ويهرسونَ حواسَ مليون شخصٍ ساروا معكَ في النَّهجِ الذي عارضتَهم به، أنتَ مهتمٌ بالحواسِ لأنَّها قدَّمتْ لكَ مُعجزةَ التَّفكيرِ بالعدد، هم لا تهمُّهم الأعداد بقدرِ ما تهمُّهم طريقة تكميمِ الأفواه، وأنتَ مهتمٌ بالفكرة، وهم قادرونَ على تمزيقِ كلِّ عقلٍ يُفكِّر بأيِّ فكرة.

ليسَ هناكَ مغزًى لكلِّ ما كتبتهُ هنا سوى أنَّ الحمارَ سوفَ يدخلُ الجنَّةَ بسببِ وصفكَ إيَّاهُ للأغبياء، ونعت الحمار بأقسى أنواع الشَّتائم، والسَّبب إنَّ للحمارِ قدرةً على تحمُّلِ الشَّتائم والأثقال والمعاناة، وها هو اليومُ المعهودُ الذي جاءَ ليثبتَ للبشريَّةِ بأنَّ هناكَ مخلوقًا بشريًّا يُدرَجُ تحتَ العروبةِ بلغتِها وثقافتِها وجنونِها
وتخبُّطاتِها، نعم إنَّهُ المواطنُ العربي، وأنا أخصُّ بالذِّكر المناطقَ التي يعجُّ بها (أبو الفهيم) مَنْ يدّعي الفهمَ بكلِّ شيءٍ
ووطنه ليسَ بهِ أي مقوّمٍ مِنْ مقوّماتِ الحياة، سوى صحن التَّبولة وحتَّى مكونات التَّبولة تصدير مِن هون وهنيك، وهنا أسوقُ قصَّةً قصيرةً جدًا حدثَتْ معي، ومع كلِّ شخصٍ عاشَ في بؤرةِ الاستشرافِ على الحمارِ الذي هو أقل منه بدرجاتٍ بتحمُّلِه للمسؤوليَّة، وطنيَّة كانت أو إنسانيَّة:

قبل عشرينَ عامًا مِنْ هذهِ اللَّحظة، كانَ بيتُنا مجاورًا لبيتِ خالي، كان لخالي دكانٌ صغيرٌ فيهِ كل ما يحلمُ به طفلٌ بسنِّهِ العاشرة، كانت أمّي تُحمِّلُني أمانةً قدرها (خمس ليراتٍ سوريَّة) لو ضاعَتْ منِّي في وقتِها لجعلَتْ مِنْ جلدي دربكةً للأعراسِ الحورانيَّة، أمسكُ المالَ وإلى دكَّانِ الخال، كنتُ محمَّلًا بكنوزِ كِسرى، أحرسُ جِلدي والمالَ والطَّريقَ وكسرى:

- بتسلِّم عليك أمِّي، وتقول لك:
أريدُ ثلاثَ بيضاتٍ وكيسًا من الشِّبسِ وبسكويتة، وبالباقي أريدُ سكاكرَ النَّعناع.

كانت أمِّي في ذاكَ الزَّمانِ تصلحُ أنْ تكونَ وزيرةَ اقتصاد، ووزيرةَ صحَّة، ووزيرةَ تربية، ووزيرةَ دفاعٍ في زمنٍ كانَ للجدرانِ آذان، وعندما تأكَّدنا أنَّ الجدرانَ ليس لها آذان ماتت أمِّي.

كانوا يُسمُّونَ الأشياءَ بغيرِ اسمِها، فنضيعُ بينَ اللُّغةِ والحلمِ وما يريدونَ أنْ يوصلوهُ لنا، كانت وجوهُنا بريئة، يُشفقُ علينا سفَّاحو الأرض، كانوا يريدونَ أن يخبرونا (إنَّ الحياةَ مش مثل ما عم نتصوَّرها) كانوا يريدونَ أنْ يحمونَا منَ التِّلفازِ
والبتوغازِ والطَّريقِ وما يوجدُ خلفَ الدَّار، ومِنَ الخرابةِ ومِنْ أولادِ الجيران، ومِنْ أولادِ العمّ، ومِنَ الكبارِ والصِّغارِ وبيتِ الخالةِ وبيتِ العمِّ والبيتِ المسكونِ الفارغ، والبيتِ الممتلئِ الصَّامت، والبيتِ الصَّاخبِ وهو بلا سقف!

كنَّا كالفراشاتِ نحاولُ الطَّيران، ولكن كانَ المقصُّ جاهزًا دائما لقصِّ أطرافنا بلا رحمة؛ فنتألَّم بقوَّة، ثمَّ يُقدِّمونَ لنا كأسَ يانسون ويَخبرونَنا: إنَّا غدًا سنتعافى، كانوا مظلومينَ وظالمينَ في نفسِ الوقت، لم نَجدْ لهم أعذارًا لنعذرَهم بها سوى أنْ نكونَ تحتَ أوامرهم، لم نكنْ نفهمُ بحجَّةِ أنَّ زمانَنا يَختلفُ عن زمانِهم، ولكن عرفنا لاحقًا إنَّ زمانَنا هو أسوأُ مِنْ زمانِهم،

كانوا يرتجفونَ مِنْ أنْ نفكِّر، لأن التَّفكيرَ بدايةٌ لنهايتِهم، كانوا يُغلقونَ علينا بابَ البيتِ في الخامسةِ مساءً بحجَّةِ أنَّ الظَّلامَ للصوصِ والنَّهارَ للمدرسة.

ماتت أمِّي بعد معرفتِنا أنَّ الجدرانَ ليسَ لها آذان، وأنَّ الحمارَ بريءٌ منَّا براءةَ الذِّئبِ مِن دمِ يوسف، وأنَّنا استطعنا أنْ نتحمَّلَ ما لم تتحمَّلْهُ الحمير، وأنَّ الجدرانَ سترٌ
وغطاءٌ ودفءٌ وعطاء، وأنَّنا نحنُ ضحايا أحلامهم التي لم يستطيعوا أنْ يوصلونا لها.

عندما أخذتُ أوَّلَ خط مخدِّراتٍ مِنْ بابِ التَّجربة، سمعتُ صوتَ أمِّي عندما كنتُ في الخامسةِ مِن عمري، وهي تقولُ كلَّ مساء:

- أقفلتُ بابَ المنزل، اجلسوا وشاهدوا الرُّسومَ المتحرِّكة، سأصنعُ لكم صينيَّةَ هريسة!

عندها علمتُ أنَّني دخلتُ في دائرةِ الخطر، مسحوقُ اللُّغةِ والأحلام، وفقدتُ المسؤوليَّة، وعلمتُ أيضًا:

إنَّ للحمار عقلًا مميَّزًا أكثر منَ الآدميين!

(نعم يا توفيق الحمار بني آدم)

7

(في مثلِ هذا اليوم منْ كلِّ عامٍ يُستعمَلُ السُّوريُّونَ كأداةٍ تَسوُّلٍ على أبوابِ المنظَّماتِ الإنسانيَّة، ويُنهبُ حقُّ السُّوريِّ على مرأى العالم، كما نُهبتْ حقوقُ كثيرٍ منَ الشُّعوب)

19 يناير: زهير أبو سعد.

سهلٌ شاسعٌ مُمتدٌّ على طولِ النَّظرِ تحتَ مِظلَّةِ وطنٍ مجهول الهويَّة، يَهجرُهُ السُّكانُ الأصليُّونَ إذا صحَّ التَّعبير، ويَسكنُهُ الغزاةُ منَ الفُرس والرُّوسِ والأتراك.
الجبالُ الشَّامخاتُ تَحرسُ خمسةَ عشرَ حرفًا منَ الإنجيل، وتَتركُ نافذةً مُشرَّعةً لمن أرادَ الفرارَ منْ قضيَّةِ إنسانٍ لم يَعرفْ أعمدةَ الخيام.

امرأةٌ رفعتْ كفَّها إلى السَّماء، تَتجسَّسُ بعينيها عدسةَ مُصوِّرٍ غرٍّ في معركةِ (أنقذونا) مِنْ دموعِ اللهِ التي تَهطلُ فوقَ رؤوسِ الضِّعاف، غدرَ بهم اللهُ بعدَ أنْ دعوهُ إحدى عشر عاما، ولا ملجأ لمن دعاهُ سوى وَهْم الدُّعاء.
قطعانٌ لحمٍ بشريَّةٍ بسنِّ مواسم الكرزِ تَنبشُ أكياسَ القمامةِ كي تُعيدَ تدويرها.
أظافرُ أطفالٍ يحملونَ الحطَبَ إلى المدنِ التي يُباعُ فيها الدِّينُ كما يُباعُ الخبز!
جياعٌ صائمونَ لم تَكتملْ في قلوبِهم الأحلامُ كي يَحملوا كتابًا في حقيبتِهم المدرسيَّة وهُمْ عائدونَ منْ كرومِ الزَّيتون.

ظالمونَ ومظلومونَ يُضاجعونَ بعضهم بكلِّ قسوةٍ كي يُفرغوا سمَّهم في مُؤخِّرةِ إبرة، كل همِّها أنْ تُخيطَ حجابَ طفلةٍ تَنتعِلُ حذاءً مِنْ غيرِ جوارب تَمنعُ البردَ في رحمِ أنثى الآلهة، يُذابُ البلاستيكُ تحتَ قِدرِ أرزٍّ تُركي وُزِّعَ على قريةٍ قد سوَّتها صواريخٌ قَدمَتْ منُ أرضِ طهران.
شرودٌ للفكرةِ العالقة في مخيّلةِ أمٍّ قد اغتصبَ أبناءُ العمِّ ابنتَها وهي تَرعى ماعزَ جارِهم آكل دمَّ ومالَ أخواتِه بالميراث،
والموتُ يُمسكُ عصا القِدرِ في الشَّمالِ السُّوري، ويَطهو الألمَ على مهلٍ كأنَّهُ يَصنعُ طبقَ فاصولياء لكلبتِه التي تبوّلُ أيتامًا هنا وهناك.

يُؤمنونَ بأنَّ المولودَ يأتي معهُ رِزقه، وهُم جياعٌ للمحةِ أمان، ويَخترقُ صفوَ الزَّمهريرِ إعلامٌ مأجور، قد أرسلَهم اللهُ كي يُعكِّروا على الخيامِ انهيارها في مُستنقعِ عنوانٍ عابرٍ في السوشل ميديا:

(خيامُ النَّازحين تَغرقُ في سيولِ الماء)

مَنَ أذِنَ للماءِ أن يَطحن تلكَ المشاهدَ المفتعلة، كي يُتاجرَ بصورِ الميّتينَ أصلًا في تعدادِ الهاربينَ منَ الموت؟

(لو تفرط السوشل ميديا محاضرات عن أنسنة الفرد السوري، راح يضل اسمنا لاجئين ونازحين ومهاجرين ومعتقلين سوريين)

العالمُ ملَّ منَ العواطف، ونحنُ مَللنا منَ الاسمِ والفعلِ والحرفِ الذي يُشبهُ الحرب.

بعضهم يُضاجعونَ بعضًا بلا خجل منَ الموتِ ولا الهدمِ ولا الرَّدم، في قبور بلا شواهد، ويُنجبونَ أبرياءَ لكي يُكملوا إدخالَ حبل نجاةٍ في ثقبِ مُؤخِّرةِ عنكبوتٍ داخلَ مغارةٍ مسكونةٍ بأمٍّ مع عشرةِ أطفال، وأبٍ يتَّمَ قبيلةً بأكملِها منْ أجلِ شهوةِ ثورٍ جموحٍ قد فقدَ صوابَه!
أيُّ صوابٍ هذا الذي يَجعلكم مجرمينَ بالجملة؟

أبناءُ اللهِ في كلِّ أصقاعِ الأرضِ يَتسوَّلونَ في شوارعِ العواصمِ العالميَّة، بالجهلِ
والتَّخلُّفِ والتَّطوُّر.
في المزابلِ يُمزِّقونَ أكياسَ الأرحامِ التي حملَتْ بهم، ووضعَتْهم وهنًا على وهن.
في الأزقَّةِ المُظلمةِ يُتاجرونَ بالمخدِّرات، ويَحقنونَ أنفسَهم كي يُقنعوا ذاكَ الطِّفلَ بأنَّه لم يُخلَقْ بعد، يَركضونَ بكلِّ طاقاتِهم في الحدائقِ العامَّة بعد أنْ سرقوا محفظةَ امرأةٍ عجوز، لا يوجدُ بها سوى المرتَّب التَّقاعدي الذي يُعينها لنهايةِ الشهر. يَحملونَ هواتفَ ذكيَّة، يَتنمَّرونَ على مفتاحِ الكعبةِ المُذهَّب، وخزائنُ اللُّصوصِ مقفلة، لا يوجدُ لها مفتاح!

الحياةُ مُؤنَّثةٌ بنتُ رجلٍ داعرٍ قوَّاد، قد أجَّرَ زوجتَهُ وبناتهُ لمُقامر في حانوتٍ يَسكبُ الخمرَ في كؤوسٍ ورقيَّةٍ ممزَّقة صفحاتها من كتابِ (إحياء علوم الدين)

(أبو حامد الغزالي)

بائعُ الكلماتِ للنُّفوسِ التَّائهة، أخذَ إجازةً أبديَّة، بلا رُجعى إلى خيامِ اليتامى.

ملَّتْ قنواتُ الطَّريقِ الى السَّماءِ نقلَ أخبارنا، إنَّهم مشغولونَ بالجثَّةِ المفقودةِ في السَّفارةِ التُّركيَّةِ في الرِّياض، وجثث ملايين البشرِ ما زالت تَلفظُ أنفاسَها الأخيرة في الشَّمالِ السُّوري.

استوى موسمُ النِّفاقِ والكذبِ والله ليس له وجودٌ في صنبور الدِّماء، إلهٌ مصابٌ بالتوحُّدِ والاكتئاب، ليس لهُ عمل سوى طمر الكاذبينَ والدَّجالينَ والمجرمينَ بالأموالِ والطَّعام، وتجويع ملايين الأطفالِ الذين ليس لهم ذنبٌ تحتَ ما يُسمَّى:

(يُريدُ أنْ يَختبرَ عبادَه)

صوتُ أمِّي الذي يَرنُّ في أذني إلى هذهِ اللَّحظة، خطٌّ وربع منَ المخدِّراتِ اقتحمَ أنفي قبلَ سنةٍ ونصف، حملتُ حقيبةً كبيرةً على كتفي، جدِّي وجدَّتي معي، أمِّي وأخي خلفي، رُمِيَتْ درعا بالصَّواريخِ الثَّقيلةِ قبل تسعةِ أعوام، أين المفرُّ يا موسى؟

هربنا إلى حدودِ الأردن، عشرونَ ساعة سيرًا على الأقدام، أسرابٌ منَ البشرِ فَقدَتِ الأملَ بأنَّ اللهَ سوفَ يَردُّ الظَّالمين، وصلنا إلى معسكرٍ يُشبهُ معسكراتِ النَّازيّين، كان سهلًا واسعًا في جوفِ عاصفةٍ منَ الرِّمال، يا إلهي! أين نحن؟

في تلكَ الأرض صحراء لا حياة بها، حتَّى الله ليس هنا!

أمِّي التي انكسرَ كلُّ شيءٍ فيها، عيونها المغبرة، ودموع الخلاصِ منَ الموتِ إلى الموت، نجونا مِنْ مدافعِ النَّار ووقعْنا تحتَ الصِّفة، نملكُ ماركةً خاصَّةً بنا، سيِّئة السُّمعة، نحن مهاجرون، معتقلون، نازحون...

نملكُ الوقتَ كي نَكتبَ كلَّ شيء، ولكن لن يَقرأنا أحد، ولا نحن.

8

(أُنكركَ وأؤمنُ بك، وأجحدُ وجدَكَ بوجودي، وأطردُ الألمَ بألمٍ آخر، فماذا تريدُ منّي؟)

زهير أبو سعد

الألمُ والماضي والذّكرياتُ جزءٌ مِنْ طبيعةِ الإنسان، لا يمكنُ أنْ ننسى أو نتجاهلَ أيَّ مشهدٍ منها سلَخَ مِن أيامِنا ألما،
إنَّ الألمَ السَّرطانيَّ يَكبَرُ في دواخِلِنا ليقتلنا بلا رحمة، ولنُدهسَ بقاطرةٍ مُحمَّلةٍ بجبسٍ مِنْ جنينٍ إلى بئرِ السَّبعِ ليبتاعَ صاحبُها ما تبقَّى لهُ مِنْ انتظارٍ تحتَ ظلِّ جسرٍ مَلكوم، بل للتَّصفياتِ النِّهائيَّةِ بمباراةٍ لشدِّ الحبلِ بينَ الأرض والسَّماء، وما كانَ مِنَّا إلَّا أنْ نُساوِمَ أرواحَنا بالجملةِ بنكبةٍ تلوى النَّكبة، في فرحةِ الفوزِ النِّهائيَّة.

نقطةٌ في مضمار مَنْ ينتهي أوَّلًا على آخرِ سطرٍ لنبدأَ مِنْ جديد،
جمهورٌ يُشجِّعُ مَنْ يَحملُ جثمانَ الوقتِ إلى مأواهُ الأخير،
وأنا أعُدُّ المعزّينَ وسياراتِهم المصفَّحةَ بالزُّجاجِ الرَّادِّ للرَّصاصِ الحي، والحيّ ليسَ لهُ مكانٌ ولا زمانٌ ولا غدرٌ ولا أمان، يَحصدُ آخرَ لقطةٍ لنا في صورةٍ جماعيَّةٍ على كوكبِ الأرض، كلُّ الأرضِ والسَّماءِ وما عليهنَّ وما فيهنَّ لهُ ونحنُ أيضًا له، وأنتم لستم لهُ لكنَّكم مع مرورِ الوقتِ ستكونونَ له، شاءَ مَنْ شاء، وأبى مَنْ أبى، لأنَّنا جزءٌ لا يَتجزَّأ في متاهةِ الـ (لهُ)

حرفٌ واحدٌ بهاءِ الغائبِ الحاضر، الذي لا يُشبهُهُ شيء، ولا يَحدُّه شيء، ولا يُمثِّلهُ شيء، هو لا شيء في صفةِ الشَّيء،
بإذنهِ تشاءُ الأشياء، ويَقدِر على كلِّ شيء، وفي نفسِ الوقتِ يُراقبُ كلَّ شيء، لكنَّهُ لا يَفعلُ شيئا!
يَتركُ لنا الإرادةَ وبعد ذلكَ يُحجِّمُها فيما نريدُ أنْ نَفعلَه، وإنْ فعلناهُ ولم يَكنْ راضيًا عنا، يُرسلُ جنديًا واحدًا مِنْ جنودهِ إلى صدورِنا، ليفعلَ ما أمرَ بهِ الألم، فيباشرُ عمليَّةَ النَّخرِ مِنْ بدايةِ بوَّابةِ الرَّأس، فوقَ الجمجمةِ مِنَ الجانبِ الأيمنِ تَستقبلهُ الأشباح، يَنخرُ نخرًا واحدًا ليثقبَ الرَّأس، وبعدَها يأذنُ لكلِّ الماضي والحاضرِ
والمستقبلِ بالدُّخول، فتَدخلُ الأشباحُ
والأرواحُ والجماداتُ والكائنات،
يَقرأُ طلاسمَ دخولنا لبيتِ الخلاءِ على غلافِ الدِّماغ، فتسقطُ الذَّاكرةُ التي لا بدَّ مِنْ نسيانِها على الصَّدر، تَشعرُ بثقلِ الرُّطوبةِ كأنَّكَ تُحلِّقُ في الفضاء، وكلَّما ارتفعْتَ كيلو مترًا واحدًا قَلَّ الأوكسجين!

إنَّها إرادتُه أنْ نحملَ ما لا يَستطيعُ حملَه.

جياعٌ هنا وهناك، ينادونَ بإعدامِ الإله، بسببِ أبنائهِ الذينَ ليسَ لهم أم، زوجتُهُ الطَّاهرة تركَها في العراءِ بعدَ أنْ اغتصبَها في الظَّلامِ مع شيطانٍ رجيمٍ ذكرَهُ في التَّوراة، كانَ عليهِ أنْ يَحميها مِنْ قضيبهِ الأزهر، وكفِّيه النُّورانيَّتين، ورحمتِهِ التي لا يَجوزُ أنْ تُشبَّه، ولا أنْ تُمثَّل، ولا أنْ تُعطَّل، كانَ باستطاعتِهِ

ألَّا يَخلقَ الجريمة، والأثداءَ المُتورّمة، والمؤخِّراتِ العارمة، كانت وما زالتْ إرادتهُ الحكيمة أنْ تُعمى عيونُ الذُّكورِ مِنَ النَّظرِ إلى نافذةِ زوجة الإله، وهي تَستحمُّ بدماءِ ملاكٍ أخطأَ إلى كوكبِ المرّيخِ سبيلَه، كانَ جبروتهُ وغضبهُ حارسًا على ألَّا يَفعلَ شيئًا، سوى أنَّ مشيئَتهُ غلبَتْ قدرتَه، ولكنَّهُ تركَ راعيًا أمامَ جامعِ الحيّ يَغتصبُ طفلةً كانتْ مهيَّئةً لتصبحَ راهبةً في ديرِ مَنْ ليس لها دير، لديرهِ لتدويره لاستدارتِه لكلِّ صرخةٍ كانتْ جاهلةً بمصيرها، ولكن هناكَ مَنْ اغتصبَها بعلمِ مَنْ لديهِ علم كلِّ شيء، وليسَ لديهِ شيء!

قططُ الشَّوارعِ المُشرَّدة تَتجوَّلُ في نصٍّ نبويٍّ صحَّحهُ الألبانيُّ في صحيحه، وروائحُ النُّفاياتِ أضاعَتْ طريقَ العودة،
في جَعبتِها أكياسُ دمِ الحيضِ والنِّفاس، وقشور جوزٍ مِنْ شجرةِ حارس سوقِ الحرير، نباحُ اللَّيلِ يَهوي مِنْ حناجرِ كلاب المدنِ العامرةِ باليأس، وصراصير المناهلِ فزِعة مِنْ تَدافعِ فوَّهاتِ المجاري التي اختلطتْ ببولِ رجالِ الأبنيةِ الكبريتيَّة،
والنِّساءُ تُغتصبُ قبلَ النَّومِ برضًى مِنَ الجاني، وختمٍ مِنَ القاضي، بقراءةِ فاتحة منَ الشَّيخِ وعرسٍ وطبْلٍ وزمْرٍ ودمٍ على قطعةِ قماشٍ تدلُّ أنَّ العدلَ على سريَّةِ اللهِ أخذَ إذنًا بمغادرةِ المكان.

هناكَ حيثُ الخيامِ ضراطُ طفلٍ يَخرجُ مِنْ مُؤخِّرتهِ مِنْ غيرِ قصد، فِراشٌ يكفي لعروسينِ تنامُ عليهِ ثلاثُ قاصرات،
وولدانِ أحدُهما بالغٌ راشدٌ مأمورٌ بأنْ يَنامَ في زقاقِ الطِّينِ ليتركَ للبناتِ ساترًا،

بناتٌ ليسَ لديهنَّ أثداء، ولكن لديهنَّ أفواهٌ يَخرجُ منها لعابُ النَّائماتِ على وسادةِ الضَّميرِ الإنساني، ليسَ لدينا طعام، ولكن لدينا بنات، ولدينا إيمانٌ بأنَّ اللهَ لن يَتركَ عبدَه، مع أنَّهُ تركهم ينامون في العراء، إلَّا أنَّ اللهَ بكافٍ عبدَه.
يَصفونَ أنفسَهم بالعبيدِ الذين يَختبرهم الله في المعضلاتِ القارصة، وتحتَ سياطِ السَّماءِ التي تَهطلُ عليهم رعدًا وبرقًا وبردا، يَضمُّونَ بُؤسَهم تحتَ عمودِ خيمة دُقَّ بمسمارٍ وعُلِّق عليهِ مصحفٌ قد أهديَ لهم مِنْ بلادِ الحرمين، معه عدَّة كيلو غرامات مِنْ عظْمِ خاروفٍ نهشَ لصُّ اللهِ لحمه، وكسرَ مفاصلَ عظمه، ووزَّعَ بقاياهُ على أصحابِ الخيام.

لدينا بناتٌ للبيعِ بأعمارِ اللَّوز البلوداني ليس لهنَّ أب، أخذهُ اللهُ مع مَنْ هتَفَ بالحريَّةِ والعدالةِ والمساواةِ والكرامة،
وتركَ خلفهُ خمسةً ممَّن شُطبتْ أسماؤهم مِنْ دفترِ (تعالوا كي نعيشَ كرامًا)، متى تزوَّجَ وأنجبَهم؟

تزوَّجها بمهرِ مَنْ ليسَ لها مهرٌ سوى سورة الجاثية ونهايات سورةِ الفاتحة، كانَ النَّاس يتدافعونَ إلى الانقراضِ وكنَّا متفائلينَ بهذا الإنجاز، على أملِ أنْ تنتهي الثورةُ ليَصنعَ لها عشًّا يُعوّضها عن مرارةِ القهر،
زُفَّتْ في اليومِ الذي قُتلَ أخوهُ برصاصةٍ في صدرهِ وهو يَحمي حيَّ الوعرِ مِنْ ولوجِ النِّظامِ السُّوري، كتبَ ليلتَها كتابَهُ دون أنْ يحترمَ هيبةَ الموت، واغتصبَها على سريره (ويا فرحة ما تمَّت)
سال دمُها على جبينِ أبيها الذي أقنعَها بالزَّواج مقابلَ خمسة وسبعينَ ألف ليرة سوريَّة، كي يَهجرَ مدينةَ حمصَ إلى لبنان، سالَ دمُها على صمتِ أمِّها

التي جهَّزتْها بلا جهاز يليقُ بطفلةٍ تَحملُ على صدرِها كُتبَ العارِ العربيَّة التي تدسُّ في عقولِ الأطفال (كيف لكَ أنْ تَكرهَ وطَنا؟)

سالَ دمُها بينَ حمصَ وحماه وإدلبَ ستّ مرَّات! مرَّة تحتَ ظلامِ الاغتصاب المقنَّنِ باسمِ اللهِ والدِّينِ والقانون والعاداتِ والتَّقاليد، والخمسة الأخريات عندما أنجبَتْ خمسةَ أطفالٍ بسنِّ الثَّورة،
وبعدَها وقعَ شهيدًا وشاهدًا على كلِّ قطرةِ دمٍ انفجرَتْ مِنْ فرجِها، ثمَّ تركَها للخيام، تحملُ خيمتَها مِنْ وادٍ إلى جبلٍ
وأطفالًا لا تَملكُ لهم طعاما،
شيخُ المخيَّمِ صاحب قولٍ وفعلٍ ولحيةٍ وعمامةٍ يدويَّة، يَسألُها كلَّ يومٍ عن حاجاتِها وطلباتِها...
عينُ اللهِ في قلبِه، وذكرُ الرَّحمنِ على لسانِهِ ونظَرَاتِه نحو صدرها وعنقِها، إنَّهُ شيخٌ مِنْ سلالةِ بنات آوى، يَشمُّ رائحةَ الجثثِ التي تَعيشُ بينَنا مِنْ دونِ ذنْب، ذنبها الوحيدُ أنْ تَصبرَ وتحتسبَ كما قالَ لها، قالَ لها أيضًا:

إنَّ صندوقَ طعامٍ بانتظارِها، عليها أنْ تأتي لتأخذَهُ مِنْ خيمتِه، وما إنْ وصلَتْ حتَّى مدَّ مخالبَهُ على صدرِها، وشمَّ دمَها كما شمَّ مَنْ قبله دمَها.

سيلٌ مِنْ دماءِ البريئاتِ يَسيلُ على قماشِ بيتِ اللهِ الحرام، وعلى كنيسةِ روما وحائط المَبكى، وبينَ (الله أكبر) و(باسم الأب والابن والرُّوح القدس) يَسيلُ كلَّ لحظةٍ بحرٌ مِنْ دمِ أنثى الإله! وعلى مرأى الإله تُغتصَب، ويُطلَبُ منها أنْ تَصمتَ لأنَّ صوتَها والشَّيطانَ والخمرَ

والميسرَ وفرجًا لم يمسسهُ سوءٌ حرامٌ حرامٌ حرامٌ كحُرمةِ يومنا هذا، في بلدِنا هذا، في شتائِنا هذا، في موتِ آلاف الأبرياء، واغتصابِ آلاف النِّساء، تحتَ أيِّ مُسمَّى!

أَلُفُّ على يدي اليُسرى مطَّاطًا أصفر، أحقنُ عروقَ جسدي بمُخدِّر، فيختلطُ دمي بدمِ الأبرياء، بدمِ النِّساء، بدمِ القططِ المشرَّدة، بدمِ نباح الكلاب، بدمِ الصَّراصير، بدمِ الكلمات، وأحلِّق عاليا، حيثُ أشاهدُ العالمَ كيف ينامُ مبتسمًا وراضيًا على جريمتِه، وعن ربِّه، وعن قوميَّته!

وأندمُ أنْ ليسَ الآن، وأحلمُ بيدِ رسول اللهِ تمسحُ رأسي أنْ حيَّ على القيامِ إلى الفناءِ والعدم، وعَدِّ سنابل القمحِ الفارغةِ مِنَ الكلام، وحديث حاخامٍ لم ينتهِ مِنْ فكِّ شيفرة أنَّ الحياةَ لها مَعْنى، وإنْ كنتَ مَعَنا فاتَّبعْنا.

9

(أعتقدُ إنَّ كلَّ الذي حدثَ كانَ عبثًا والذي سوفَ يَحدثُ أيضًا عبثًا)

سينًا مَنسيًّا لا وجود لهذا الجحيمِ سوى في الرَّأس، يَتناوبُ الألمُ على مبالاتي لكلِّ شيءٍ لنْ يَحدثُ في أغلبِ ظنِّي، كأنَّ الدُّودَ انتهى مِنْ نهشِ لحمي بمكَنةِ تفصلُ رأسَ القمحِ عن قشرهِ المحميّ بطبقةٍ تمنعُ الشَّمسَ منَ حرقِه، لا وجودَ لي حينَ استيقَظَ مَنْ لا وجود لهُ على مقربةٍ منّي، هو وحدهُ الوجودُ الموجودُ في حلّي وترحالي وبقائي وفنائي، وَهْمٌ يَسحقُنا، وبعضُنا يَسحقُ بعضًا مِنْ أجلِ الذي لعِبَ دورَ الجَّاني والجَّلاد، والبريءِ والضَّحيَّة ، وَهْمٌ تَمتزجُ ذاتُهُ بلُعابِ ثعلبٍ بريءٍ مِنْ تُهمةِ المكرِ في ليلةٍ ثلجيَّة، نُكذِّبُ ظلَّهُ بغبائِنا اليقينيّ، وثبَتَ لكذبِنا بأنَّ يَقينَ المُخادعِ لا يَعلو عليهِ يقين، وأغبطُ ذكرى أمّي في كلِّ عامٍ مِنْ بَعدِ أنْ جدلتُ ضفائرَها بينَ أصابعِي، وألقيتُ بها في كفنٍ أبيض، وعَقَّ الابنُ أمَّهُ في يومِ موتِها بدفنِها تحتَ الأرض، وأنكرَها كأنَّ الودَّ لا وِدّ في ودِّهِ إلَّا بتقديمِ جسدِها لوِدِّ الدِّيدانِ والظَّلام...

أيُّ ابنٍ أنا لها؟

تتساءَلُ امرأةٌ لا تاريخ لها، قد فقدَتْ عقلَها رحمةً بمن أَلقى بها في دارِ العَجَزة.

في كريدورِ الدَّارِ يُسمَع صوتُ كعبٍ مُدبَّبٍ يَهزُّ سريرَ طفلةٍ يتيمةٍ ماتَتْ أمُّها وهي تَنزِفُ نزفَ النَّفاسِ، كانَ عرَقُها يُغرِقُ وجهَها في نهرِ إنَّا أعطيناكَ الكوثر، بسكِّينِ السّكونِ السَّاكنةِ على الكاف، ومَنْ يَدري مَنْ كانَ يُراقبُ صوتَها تحتَ ظلِّ الكاف!

كانَ باستطاعتِه إنقاذها مِنْ حبلِ الموتِ
وهوَ يَلتفُّ حولَ عنقِها...
عروقُها تَخرجُ في الفناءِ مع الماعز، وبقرةٍ واحدةٍ كهولٍ تَسرحُ في وادٍ لا زرع فيه، وتَعودُ بضرعٍ متآكلٍ تتآمرُ عليهِ كلُّ القوى الخارجيَّة.
عروقُها مشدودةٌ بظرفٍ مُلقى في بريدِ دارِ العَجَزة بلا عنوان ولا هويّة، تَسكنُ به ورقة (أنْ أَنقذوا هذه المرأةَ مِنَ الموتِ وحدها بلا جدَّين ولا جيران)
عروقُها مترابطةٌ بكابلٍ كهربائيٍّ يَنفضُ أنفاسَها كلَّما تَذكَّرتْ لَطمةَ زوجِها على وجهِها لأنَّها امرأةٌ عنيدةٌ لا تَصلحُ للبيتِ
ولا للزَّواج!
عروقُها مستسلمةٌ للموتِ فجأة، وللحياةِ بعد أنْ تَضعَ مولودَها وتعودَ إلى دارِ الطَّاعة.
عروقُها تتصارعُ في كلِّ دارٍ دخلتْها، مِنْ دار أبيها، إلى دار زوجِها، إلى دارِ الحقّ،
تُجلَدُ بحزامِ (جلد التِّمساح) على ظهرِها وهي مُكبَّلة بخمارِها وجلبابِها وعفَّتِها وشرفِها وقلَّةِ حيلتِها، وشيخنا الذي اغتَسلَ بصطلِ مسكٍ يَزيدُ الجَلْدَ بعدَ الجَلْد، ويَصيحُ بصوتِ اللهِ والإيمانِ

والكفرِ والإلحاد: أنْ أُخرُجْ أيُّها الإلهُ مِنْ جسدِها، بل مِنْ روحِها، بل مِنْ ثوبِها، بل مِنْ قدمِها، بل مِنْ فرجِها!
أُخرُجْ مِنَ الحياة، مِنَ الموت، مِنَ البعث، مِنَ الفنَاء، مِنَ النُّشور، ومِنَ العدم!

شيخي يَجلدُها بسوطِ القرآنِ والسنَّةِ
والشّيعةِ والصُّوفيَّةِ والمُعتزِلة، شيخي يَتعرَّقُ ولا يَنتبهُ لعرقِها وعروقِها ودمِها
وصوتِها وألَمِها،
كأسُ ماءٍ لشيخي ومنديلٌ أبيض لم يمسَسْهُ إنسٌ ولا جان، ويُكمِلُ الجَلد، ويُقرأُ مِن بعدِ أنْ تَمزَّقَ ثوبُ الكعبةِ بسوْطِ شيخي، وتَشقَّقَ اللَّحمُ مِنْ ظهرِها، وبانَ عظمُ ظهرِها {فبأيِّ آلاءِ ربّكُما تُكذِّبان}
ويَستمرُّ بفرمِ جلدِها على مَكَنةِ فصل جلدِ الأفعى عن لحمِها، أُخْرُجْ وارحَمْها مِنْ صوتِها الذي تَبتلعُه وتَبتلعُ نفَسَها.

عروقُها بارزةٌ كأنيابِ الحقِّ والظُّلمِ
والعِصيانِ والطَّاعة، ومزراب بيتِ اللهِ في حرمِه يَهطلُ منه دمها، ويَتمزَّقُ ما كانت تُخفيه أمُّها عِنْ إخوتِها الذين كانوا يَتحرُّشونَ بها، دمُها يَنزفُ بغزارة،
ورُفعَتْ حالةُ الطَّوارئِ في القريةِ أنْ أَنقذوا شيخي بكأسِ نبيذ، وسبعِ تمراتٍ مُغمَّسة بدماءِ أوَّلِ حيضةٍ في المُجلَّدِ الثَّالث لمدارجِ السَّالكينَ بينَ إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين.

دمُها يُبلِّلُ غرفةَ الاحتضار، ويُخيفُ مَنْ مدَّتْ يَدَها ذاتَ يومٍ في كوخِ الدَّجاجِ لتسرقَ بيضَ أيتامِ الجيران، وتهمُّ بالفرارِ مِنْ بعدِ أنْ كسَرَتْ سلَّةَ القشِّ، فسقطَ البيضُ والدَّمُ والجثَّةُ والنَّارُ بيَدِ الخوارجِ في تاريخِ الغُزاة والفاتحين.
دمُها يَصبُّ في نهرِ النِّيل، والكهَنةُ الأقباطُ يَحملونَ الصَّليبَ إلى شيخي كي يُعينوهُ على تبخيرِ مغطسِ المسيح، وغرفة العناية التي لم تَنجُ منها حاملٌ تعسَّرَ حملُها، وخانَها جنينُها، فشَقَّ فرجَها بكعبِ حذائِهِ العسكريِّ وهوَ عائدٌ منَ الحربِ مِنْ بَعدِ هزيمةٍ رسميَّة!

يَمدُّ اللهُ الممرضةَ بمنشفةٍ بيضاءَ تضعُها في فمِ مَنْ تَصرخُ: (يا يُمَّة دخيلك!) ويَضعُ شيخي يَدهُ على رأسِها ليُمسكَ بخمارِها ويُلقي بضعفِها في زاويةِ سيِّدي (عبد القادر الرفاعي) ودفوف (طلعَ البدرُ علينا)
تَسحبُ مِنْ أعضائِها سلكًا دبلوماسيًّا لتوصلَهُ بمولِّدةِ الطَّاقةِ الكهربائيَّة للمدينةِ المنوَّرة!
تقولُ العاهرةُ التي تُولِّدُ الشَّريفة: (شدِّي بنتي)

بقفصِ مَقامِ رسول الله، بشباكِ قبر صلاح الدِّين الأيُّوبي، بالأعمدةِ الرُّخاميَّةِ ليوحنَّا المعمدان، بالحجابِ الحجري لمريم العذراء في روما، بالرِّماحِ التي تَحرسُ جثمانَ شيربيل، بكتابِ الحيضِ والنِّفاسِ في فقهِ الإمام مالك، بمحرابِ المسجدِ الأقصى، بِشقوقِ حائط المبكى، بكلِّ مَنْ لهُ مَصلحة للغدرِ بها في ذروةِ النَّشوةِ
والألمِ والفراقِ واللِّقاءِ والبقاءِ والموتِ

والحياةِ والنُّشورِ والفزع، تَشدُ على الشدَّةِ في لامِ الله، وأنَّ كلَّ مَنْ تَمسَّكتْ بهِ كانَ جبانًا ولم يَلتفتِ إليها.

كلُّ مَنْ فُضَّتْ بكارتها تحتَ خيمةِ مَنْ لا إيواء لهُ أنجبَتْ جنينَها كما أنجبَتْ مِنْ قبلَ فيها: {وهُزِّي إليكِ بجذعِ النَّخلةِ تُساقط عليكِ رطبًا جنيًّا} ومَنْ غَدرَ بها اللهُ في جناحِ العنايةِ المُركَّزةِ تَبعثرَ دمَها وعَوَتْ عروقُها وضجَّتْ بالنُّباحِ والعويل! حياةُ المرءِ مُعلَّقةٌ في بكارة، وموتُهُ مُعلَّقٌ في دارِ رعاية، وصوتُ مَنْ لا صوت لهُ يَصلُ إلى مَنْ صوته لا يُشبهُه صوت أحدٍ ولا يُبالي، وكأنَّني أنا مَنْ كُنتُ حاملًا بعدمِ وجودِه، وكذبةِ وجودِ مَنْ لا وجود له.

لشرفِ عروقها عَرَقٌ مشرّفٌ يَسيلُ بينَ ثدييها وهي منزوعة الثِّياب، وقدماها مرفوعتانِ لخروجِ صوتٍ آخر يَتناغمُ مع صوتِها، صوتُها الذي سكتَ وأغمَدَ نفسَهُ في صدرِه...

أحقنُ دمي بدمِها بسوطِ شيخي وآخر سورةِ الحشر، وتعلو على قبرِ أمِّي زهورُ الأقحوانِ والموت، أنتظرُها في غرفةِ الإنعاشِ بعدَ أنْ فَقدْتُ صورتَها وأنا عائدٌ مِنْ بائعِ المخدِّرات، سيَّارةٌ تُقلِّني حيثُ يَذهبُ الأحياءُ إلى صالونِ الموتِ لحلاقةِ شعر العانة قبلَ الخروجِ منَ الحياة، أفقدُ كلَّ مشاعر الحقدِ والحبِّ والبغضِ
والمشاعر التي كانت وما زالت ليست لي! أفقدُ الإيمانَ وطريقَ العودةِ إلى حوران، مكتوبٌ على قبرها (الشَّابةُ التي أنجبَتْ أربعةُ فِتْيان يَتناوبونَ على حملِ ذكْرِها في كلِّ يوم) وحفروا في أسفلِ شاهدةِ قبرها (ريحة الحبايب)

أصحو على صوتِ طبيبةِ الإنعاشِ
وابتسامتِها، وأسألُ كمنْ فقدَ قدميهِ في الحربِ العالميَّةِ الثَّانية:

هل عادتْ أمِّي منَ المشفى؟

10

(قالَ لي أخي الكبير: إنَّني مصابٌ بالإحباط، لأنَّ الوعيَ قادَني إلى إنكارِ ما تعلَّمتُه مِنْ قِيم ومبادىء، وعلى هذا المقياسِ أحاولُ الانتقامَ مِنْ كلِّ شيء، ومِنْ غيرِ أنْ أفهمَ لماذا سوفَ أنتقم؟
وممَّن؟ ومِنْ أجلِ مَنْ؟)

كانتِ السَّاعةُ الرَّابعةُ عصرًا في بدايةِ الشِّتاءِ عندما وصلتُ إلى النِّمسا، كنتُ قادمًا مِنْ تركيا، عابرًا البحرَ والنَّهرَ والجُزرَ والوديان والجبالَ والسُّهول، كنتُ قادمًا مِنَ الموتِ وذاهبًا إلى الموت، اجتزتُ الحدودَ والحرسَ والشُّرطةَ والعسسَ
والكلابَ البوليسيَّةَ والظَّلامَ والنُّورَ واللَّيلَ والنَّهار، لم يكنْ لديَّ أيّ سؤالٍ لأسألَ عقلي:
لماذا أنا هنا؟
وكيف وصلتُ إلى هنا؟
ومِنْ أينَ أنا بالتَّحديد؟
مِنْ بعدِ أنْ رأيتُ البحرَ والموجَ المتلاطمَ في وسطِ المحيطِ بلا أيّ وسيلة نجاةٍ سوى بعض الكلماتِ مِنَ المُهرّب:
(ساعةٌ ونصفُ ساعةٍ وسوفَ تكونون في الجزيرةِ اليونانية)
بلا لغة ولا هويَّة ولا أسماء مُسجَّلة تُحصي عددَ مَنْ ابتلعَهم البحر، أُلقينا في المحيطاتِ إلى ما تُسمَّى: الجنَّة الأورُبيَّة!

كنتُ مفلسًا مِنَ الأمانِ والحياة، بقايا قِيمٍ تلقَّيناها عَنوةً نتَّكِئُ عليها كي نتخلَّصَ مِنَ الحقيقةِ والواقع، ونَطردَ المواجهةَ الحقيقيَّةَ بالوهمِ المتعربشِ على جُدرانِ جماجِمِنا، هنا الجحيمُ في رأسكَ يَغلي كالبركانِ وليسَ لهُ أمان، خَلعنا ثيابَنا في مركزٍ للشُّرطةِ النِّمساويةِ فورَ وصولِنا، جُرِّدنا مِنْ كلِّ ملابسِنا!

كانتِ الغوريلَّا واقفةً أمامَ الشُّرطيِّ الذي يَرى الحيواناتِ الشَّعورةِ خلفَ القفص، خائفًا أنْ تَهجمَ عليهِ وتُنهي حياتَه، إنَّها تَقفُ أمامَهُ مكبَّلة وواعية، تَنطقُ وتَتحدَّثُ وتُعبِّر عمَّا تَشعرُ به، وتتساءلُ: لماذا أنا هنا؟

الشُّرطي لا يَعرفُ تلكَ اللُّغة، نحنُ مِنْ غاباتٍ صحراويَّة، كانَ العالمُ يُشاهدُنا في برامج الغابات الاستوائيَّة، ويَستغربُ مِنْ طريقةِ حياتِنا الغبيَّة، وثقافتِنا غير المنطقيَّة!

تَجرُّ الغوريلَّا جسدَها أمامَ شرطيٍّ أشقرَ أمهقَ يَخرجُ مِنْ وجههِ النُّور، مبتسمًا لأنَّهُ ألقى بحيوانٍ شرقيٍّ في قفصِ الاتِّهام،

وخلفَهُ شقراءُ حسناءُ منتصبةُ القامة، مضلَّعة الوجهِ كالتي نَراها في الدِّعاياتِ الغربيَّةِ عبرَ السَّتلايتِ النَّاقل للأقمارِ الصِّناعيَّة، تَرتدي ثوبًا بوليسيًّا كالرِّجالِ تماما، كانت واثقةً مِنْ نفسِها، تُخفي سُخريتَها خلفَ ملامحِها، على خصرِها مسدَّسان مُحمَّلان بالرَّصاصِ الحي، تُحاولُ أنْ تُبعدَ نظراتِها عن قضيبي والشَّعر المنتشر كالنَّار في الهشيم، وعن مُؤخِّرتي، كنتُ عاريًا من الصحَّة، وعاريًا من الثِّياب، وعاريًا مِنَ المنطق، وعاريًا مِنَ الإنسانيَّة، وعاريًا مِنَ المشاعر...

ساقوني إلى غرفةِ التَّصوير، أصابعي غرقَتْ بالحبرِ الأسود، وجسدي أمامَ كمرةٍ ضخمة، تَطبعُ يدي على ورقٍ أبيضَ رجفةً تَختلُّ ما يَختلُّه العقل، فيُصدرُ ذبذباتٍ بعدمِ الاتِّزان، نحنُ في غوانتنامو نُصهَرُ على نارٍ هادئة.

في عامِ دخولي في مرحلةِ اكتشافِ الوعي والمنطق وما يَدورُ في الدِّماغِ تلتقطُ لنا كمِرةُ البوليس، ويلتقطُ الأمنُ العامُ الخارجيُّ والدَّاخليُّ صورةً تذكاريَّةً لأوَّلِ يومٍ باللُّجوءِ إلى النِّمسا، كانت صورة عارية بأصابعَ مصبوغة ذات رائحةٍ مجَريَّةٍ بحريَّةٍ صربيَّةٍ تشيكيَّةٍ يونانيَّةٍ كروانيَّة، فيها رائحةُ الحربِ والسِّلمِ والدَّمارِ

والإعمار، أنا الآن هنا أقفُ في المصعدِ في الطَّابقِ الرَّابعِ للعالمِ الذي يُطلَقُ على أراضيه: (اللِّيبراليَّة الدِّيمقراطيَّة) حيَّ على الحريَّةِ قولًا وفعلًا، أنتَ هنا ملِك نفسكَ بشرطِ ألَّا تُؤذي غيرك، لا بالفعلِ

ولا بالكلام، فالكلمةُ هنا أسوأُ مِنَ الأذى الجسدي، الكلمةُ تَصنعُ حربًا وتُخمِدُ أخرى، تَجدُ هنا طاولةً مُستديرةً مملوءةً بما لذَّ وطابَ مِنَ الثَّقافاتِ والأعرافِ والأديانِ

والإلحادِ تَنتظرُ قدومَكَ كي تأخُذَ مكانَكَ وتُدلي بصوتِكَ وكلمتِكَ كي يَعرفَ المجتمعُ الأورُبيُّ (مَنْ أنت؟)

يَسألُ الشُّرطيُّ إذا كنَّا نحملُ أوراقًا ثبوتيَّةً تَدلُّ على نكهةِ حربِنا على أنفسِنا! يُنقذُنا شخصٌ يَتحدَّثُ الإنكليزيَّة، أغبياءُ بالجملةِ نقفُ أمامَ أشخاصٍ قطعوا آلافَ الكيلو مترات بالوعيِ ومحاكاة الواقعِ

وحفظِ اللُّغاتِ وتعبئةِ البيانات، نُخرِجُ أوراقَنا (جوازات سفر، بطاقات شخصيَّة، دفاتر خدمةٍ إلزاميَّة في جيوشِ المافيات العربيَّةِ تَجذَّر بها التَّطرُّفُ القوميُّ

والدِّيني) نُخرجُ بطاقاتِ انتخاباتٍ رئيس الدَّولةِ الواحدِ الأحدِ الذي لا شريكَ لهُ في مُلكهِ ولهُ ولدٌ واحدٌ سيأخذُ الحُكمَ مِنْ بعده، ويَرعى بنا في زريبةِ الوطنِ الذي يتآمرُ عليهِ كلُّ العالمِ بظنِّنا، ويتربَّصُ لهُ الأعداء، نحنُ الأعداء، ونحنُ المتربِّصونَ بثيابِنا كي نرتديها مِنْ بعدِ أمرِ البوليس، كنَّا نظنُّ أنَّنا سوفَ نَخرجُ إلى فندقٍ مِنْ خمسِ نجومٍ كما كَذبَ علينا مَنْ وصلوا قبلنا إلى هنا، وفرَّقونا إخوة الطَّريقِ

والعبثِ مع الموت، أخذَ كلُّ شرطيٍّ شخصًا منَّا إلى كريدورٍ طويلٍ باردٍ لا يُسمعَ لهُ همسًا ولا حياة ولا نشورا، مشينا نحوَ زنزاناتٍ مُصفَّحةٍ نظيفةٍ مِنَ الستيل الأصلي المصبوب بالرَّصاصِ الياباني المخصَّب مِنَ اليورانيوم، لها نوافذُ مغلقةٌ تشبهُ شاهدات القبورِ المدفون بها أشر النَّاسِ وأعنفهم وأظلمهم وأكثرهم قسوة، كنتُ مكبَّلًا بكلَبشةٍ ذات طرازٍ رفيعٍ حُفرَ عليها الرَّقم (9941)

أساقُ حيثُ سيقَ مَنْ هربَ مع موسى مِنْ بطشِ فرعون بينَ دفَّتي نهرِ النِّيلِ المشقوق بعصا نبيِّ الله، أسيرُ إلى العدمِ حيثُ مثوايَ الأخير، حيثُ بوابة تشبهُ أخواتِها مِنْ بوَّاباتِ الأنظمةِ التي تَخافُ مِنْ مجرميها، ويُفتحُ البابُ وتُفكُّ الكَلَبشةُ وأؤمرُ بالدُّخولِ بالإيماء، ويُقفلُ البابُ خلفَ ظهري، لم أرَ الغرفةِ بعد، كنتُ أشاهدُ عيونَ السَّجانِ الذي يُحاولُ الهروبَ مِنْ ملاحقتي له، إنَّه مأمورٌ وملزمٌ بسجنِ الإنسان تحتَ أيِّ ظرف، هو لا يَعرفُ جرمَكَ ولا مَنْ أنتَ ولا مِنْ أينَ أتيت!

كلُّ الذي يَعرفهُ أنَّكَ موقوفٌ لسببٍ يُهدِّدُ أمنَ المواطنِ والوطن، إنَّهُ خجلٌ مِنْ رؤيةِ المسجونِ والسّجنِ والأقفالِ والأبوابِ المصفَّحةِ والكريدوراتِ الطويلةِ

وملامحَ المعتقلين وقصصِهم، إنَّهُ يَصلحُ أنْ يكونَ روائيًّا بوليسيًّا وجميعنا نَصلحُ أنْ نكونَ (كومبارس) في عالمِهِ المُغلق، وحشد كلماتي في سردهِ لهذهِ المهزلةِ البشريَّة، إنَّهُ يُغلقُ البابَ مِنْ غيرِ أنْ يُصدرَ أيّ كلمة، كان يُريدُ أنْ يَعتذرَ لأنَّهُ لم يَقصدْ جرحَ آلاف الأبرياء، هو في النِّهايةِ يَمتلكُ حياةً أخرى مِنَ العالم، لهُ عائلةٌ وأولادٌ وأمٌّ وأبٌ وإخوة، إنَّهُ يُشبهنا تماما، ويُشبهُ وجودَنا وغيابَنا، وصوت الرَّاديو المحميّ خلفَ جدارٍ حديديٍّ يُصدرُ أغاني ألمانيَّة غيرَ مفهومة، صوتُها يَبعثُ أنَّ هناكَ حياةً أخرى خارجَ هذا القبرِ ويَرحلُ بصمت، أسمعُ صوتَ اهتزازِ المفاتيح وخطواته، كيفَ يَهربُ منَ الأشباحِ المدفونةِ هنا،

ومِنْ رائحةِ الرُّطوبة وصنبورِ الماءِ خلفَ حاجزٍ حجريّ، هل يوجدُ هنا أحدٌ غيري؟

رأيتُ اللهَ جالسًا على كرسيٍّ هزَّاز، إلهٌ مذكَّرٌ عجوزٌ يَدَّعي أنَّهُ ابنُ الثَّلاثين، شَعرهُ مصبوغ، وواحد مل مِنَ الشَّيبِ يَظهرُ مِنْ تحتَ حجابه، إلهٌ محنيُّ الظَّهر، غارقٌ في سنَّارتِه، كانَ يَنسجُ معطفًا لنا، نحنُ الذينَ نَشعرُ ببردِ المكان، والصُّوفُ مِنْ سلَّةٍ مصبوغةٍ ومحبوكةٍ مِنْ ماعز جبال الألب، يُرحِّبُ بي فورَ دخولي إلى الظَّلام فِساءُ مُؤخِّرةِ قطَّةِ الإله، وهو مُغبَّرٌ ساكنٌ ملتئمٌ ملتوٍ على الوقت، هناك بوتوغاز مشتعلٌ وموضوعٌ عليهِ إبريقُ شايٍ مِنْ صُنعِ روسيا، عرفتُهُ مِنْ ألوانهِ الفاقعة، وشكلِهِ المستدير الذي يُشبهُ عرائسَ الأطفالِ الرُّوسيَّات، إنَّهُ يَغلي ولا أحدَ يَنتبهُ إليه،

وصحنٌ متوسِّطُ المقاس، عليه ثلاثُ تفَّاحات، إحداهنَّ مأكولة مِنْ طرفِها، أسنانُ اللهِ صغيرة، ولا يُحبُّ التُّفَّاح، إنَّهُ يَخلقُ كلَّ شيءٍ لا يُحبُّه، والأشياءُ

التي نُحبُّها نحنُ المخلوقات ليست حقيقيَّة (إنَّها فرضيَّاتٌ لا وجود لها) نحنُ نعيشُ مِنْ أجلِ أشياءَ غير ملموسة (الأمل، التَّفاؤل، السَّعادة، الغد الأجمل) كلُّ هذهِ الفرضيَّاتِ أوجدَها الإلهُ في دماغِنا،
ومَنعنا مِنْ لمسِها!
نحنُ كلابُ اللهِ الأوفياء، مروَّضونَ على اللَّحاقِ بعضمةٍ وهميَّة، لا يُعجبنا النَّوم إلَّا والحبلُ في عنقِنا، نَخشى مِنْ أنْ نهربَ مِنَ الله! إذا هربْنا نَعتقدُ أنَّنا لن نحضى بوجبةِ العشاءِ التي تُقدَّمُ لنا إهانةً على وجودِنا في رحابهِ العَليَّة!

هل يوجدُ أحدٌ هنا؟

كانَ هناكَ شابٌّ يَتحدَّثُ بلهجةٍ مغربيَّة، عندما خرجَ منَ المرحاضِ كانَ خالعًا ثيابهُ تمامًا وَهَمَّ إلى النَّوم، أنا بالنِّسبةِ لهُ مجرَّد خيال، لهذا السَّببِ لم يَخجلْ مِنْ نفسهِ
ويَستر عورتَه إذا صحَّ التَّعبير، قالَ لي:

هذا سريرُكَ نظيف، ثلاثةُ شهورٍ لم أرَ أحدًا هنا! سوفَ تَعتادُ على المكان، ولكنْ لا بدَّ أنْ تَستحمَّ فرائحتكَ مُقرفة!

ضحكتُ بأعلى صوتي (العبث، الفوضى، الدِّقة، المكان، الزَّمان، الوقت، اللَّاشيء، أنا، مخيّلتي، رائحةُ الحاضرِ غير المعروف، المستقبلُ ليسَ هنا)

اللهُ كانَ يَرى حوارَنا، ويَنظرُ بعينهِ التي لا تَنام إلى شَكلي المُقرفِ مِنْ خلفِ نظارتِه الكلاسيكيَّة الطبيّة، إنَّها نظَّارةٌ فرنسيَّةٌ فمَن يا ترى أهداها له؟

قالَ لي الشَّابُّ: إنَّهُ مِثليُّ الجنس،
قلتُ له: وأنا مِثلكَ ولكنَّني لستُ مِثليّا،
وإنَّما مِثلكَ في التَّصميم، ورُحتُ لأستحمّ، رأيتُ (سمير هندواي) إنَّهُ صديقُ أخي الذي قتلَتْهُ رصاصاتٌ طائشةٌ بينَ درعا البلدِ والمحطَّة، كانَ ذاهبًا ليشتري لأمِّهِ دواءَ السُّكريّ والضَّغط، ولكنَّهم قتلوهُ في حربٍ أهليَّةٍ بين حماةِ الوطنِ والمواطنين، كان جالسًا في الزَّاويةِ عاريًا تمامًا مِنْ كلِّ شيء، دمه تحتَ جسده، قد وضعَ رأسَه على ذراعيه، وذراعيهِ على رُكبتيه!

عندما رآني سألَني هل أمّهُ بخير؟
هل اشتروا لها دواءَ السُّكري والضَّغط؟ سألَني عن درعا البلد، سوق سويدان، الجامع العمري، الملعب البلدي، محل أبو فادي لبيعِ الفلافل، ولكنَّني قلتُ له:

مَنْ أنت؟ أنا لا أعرفُك، ولا أعرفُ درعا البلد، أنا شخصٌ مِنْ وَهمٍ ولا أريدُ أنْ أعرفَ أحدا!

كنتُ قاسيًا جدًّا معه، خلعتُ ثيابي أمامَهُ لأستحمّ، وكانتِ المياهُ التي تتساقطُ مِنْ جسدي تَختلطُ بدمهِ وتسري نحوَ منهلٍ يَصبُّ في الإبريقِ الذي يَغلي على بوتوغازِ الله!

أشدُّ على عضدي المطَّاط، أحقنُ نفسي في ذلكَ السَّرير، ويَختلطُ شايُ اللهِ بدمائي، بدماء سمير، بماء المنهل...
أسمعُ صوتًا عاليًا يَصيح:

(سوريَّة لينا وما هي لبيت الأسد!)

لم أعرفْ أحدًا منهم سوى وجه شخصٍ منَ الأبازيدِ كانَ يُشيرُ بإصبعهِ نحوي ويقول:

(اقتلوهُ إنَّهُ خائن!)

11

(هل أنا مُصابٌ بعِلَّةِ الوعي؟ وهل الوعيُّ عِلَّة؟ إذا كانَ الجوابُ بنعم، فلماذا كلُّ هذا الألم؟
بالمختصر: لأنَّهُ عِلَّة)

أسئلةٌ كانَ يَتهرَّبُ منها الطَّبيبُ النَّفسيُّ لجلستي رقم (247) في مركزِ حماية للاستشارةِ النَّفسيَّة، أحاولُ البقاءَ هادئًا أمامَ المُعالجِ النَّفسي، وأَبتسمُ عندما أراه، لأنَّهُ صديقي قبلَ أنْ يكونَ مكنةً للاستماع، أنْ أَتماسكَ أمامهُ مِنَ الضَّحكِ هذا يَعني أنْ أَتصنَّعَ في الجُلوس، وأُمثِّلَ دورَ الضَّحيَّةِ التي تَأتي إلى طبيبِ النِّسائيَّةِ بعد كلِّ حملٍ ليُبشِّرها بأنَّها حاملٌ بشهرِها الرَّابع، هي تَعلمُ أنَّها حامل، ولكنْ حَملَتْ بحملِها إليهِ ليُبشِّرها، فالرِّجالُ بطبعِهم لا يُصدِّقونَ النِّساءَ إلَّا بإثباتٍ علمّي، ولكنْ فقط في نُقطةِ الأَجنَّةِ المصيريَّة التي سوفَ تُبتلى بها البَشريَّة
ومِنْ غيرِ أنْ نَتساءل (ليش؟)

اليوم فَتحتُ نِقاشًا مع الطَّبيبِ في أشياءَ ليسَ لها علاقةٌ في حالتي النَّفسية، أنا أعلمُ ما بي مِنْ نقطٍ حسَّاسةٍ أُعاني منها، فلا جدوى لفتحِها مُجدَّدًا مِنْ أجلِ ألَّا أُصابَ بالملَلِ في ظنِّ الطَّبيب، هوَ يَتهرَّبُ مِنْ مواجهتي، لأنَّني اكتشفتُ ذاتي، وحلَّلتُ عُقَدي أمامه، ومِنْ غيرِ أنْ يَنطِقَ بحرفٍ واحد، كنتُ أصطدمُ معهُ في معركةٍ وجوديَّةٍ كلَّما فتحنا بابًا للنِّقاش، كانَ يُريدُ أنْ يُثبِتَ لي بعض

الأشياءِ التي أعرفُها ولا حاجة لي بتكرارِها، أو أنْ أخوضَ بها، كانتْ الحروبُ تَشتعلُ بيني
وبينَه على أشياءَ تافهةٍ لأنَّني أراها تافهة، ولكنَّ عقلي كانَ يَطوفُ حولَ محورِ اكتشافي لكلِّ ما هو حولي بعد صدمةٍ عبثيَّة، لا معنى لوجودِنا بالأساسِ سوى قهر عقولنا بغباءٍ مُتوارثٍ بالقوَّة، ومِنْ غيرِ أنْ نَعلَم، لماذا نُدافعُ عن أفكارٍ مكتسبةٍ ليستْ منطقيَّةً ولا واقعيَّة، بل دمويَّة
ومُؤذية لنا قبل أنْ تَكونَ مُؤذية لغيرِنا؟ كلُّ ما في الدِّماغِ السُّؤالُ المُتعب:
(إنُّو ليش كل هالشيء عم بصير معنا؟)

(ليش زعلان أو تعبان أو فرحان؟)

نحنُ مخلوقاتٌ عبثيَّةٌ بلا أي فائدةٍ لوجودِنا في مكانٍ خاطئ، مهمَّتنا أنْ نجدَ مصيرًا مُحزنًا للفتِ الانتباه مِنْ أجلِ مواساةٍ كاذبة، مِنْ طرفٍ نَعتقدُ أنَّ لهُ مكانًا في حياتِنا!
يلعن أبو هالدَّائرة المبنيَّة على الفوضى الافتراضيَّة التي لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر في واقعِنا، ذكرتُ ذلكَ للمُعالجِ النَّفسيّ: إنَّ تسعينَ بالمئةِ مِنْ حياتِنا نحنُ البشر مبنيَّةٌ على ما يَعتقدُه الآخرونَ بنا مِنْ خيرٍ أو شَرّ، والعشرة الباقية مِنْ حياتِنا هي مُتطلَّبات الحياة الواقعيَّة الحقيقيَّة التي يَتجاهلُها جميعُ النَّاسِ هربًا مِنْ مواجهةِ الحقيقة!
طيلة الوقتِ نحاولُ أنْ نَربطَ مصيرَنا بمنْ حولَنا برابطٍ وهميّ خياليّ عاطفيّ وغبيّ، والوقتُ يَمضي بسرعةٍ بلا أي فائدة كرذاذِ سيجارةٍ يَتساقطُ مِنَ الطَّابقِ الخامس، مِنْ نافذةِ امرأةٍ مُسنَّةٍ تَنتظرُ الموت،

قَتلَنا التَّفكيرُ في دائرةِ الأنا، والآخرين، وحتَّى بالموتِ الذي سوفَ نَلقاه، كلُّ الوقتِ ونحنُ نُفكِّر مَنْ سيمشي خلفَ جنائزِنا؟
وماذا سوفَ يَحدثُ بأملاكِنا وأبنائِنا؟
هل سيزورونَ قبورَنا أم سوفَ نُنْسى كما نَسيْنا آباءَنا؟ والهولوكوست تَطحنُ أدمغتَنا بلا مراعاة الحقيقة التي نَعيشها!

أمِّي في سنِّ الثَّلاثين، كنتُ أراها كيفَ كانتْ تَشردُ بالتَّفكير، تَصمتُ ويَصمتُ المكانُ والزَّمانُ والماضي والحاضرُ والذَّاكرة، كنتُ مَشغولًا بها، وبماذا تُفكِّرُ هذه المرأةُ التي أمضَتْ حياتَها وهي تَقول: (ولا شفت يوم مسعدة)
كانتْ تتذمَّرُ مِنْ كلِّ شيء، وحتَّى مِنْ وجودِنا، مع أنَّ حياتَها المعيشيَّةَ مُعتدلة كحياةِ النِّساءِ الأُخرياتِ الصَّامتاتِ في الحيّ، لم تَكنْ امرأة نقَّاقة ولا سعيدة، وكانَ في قلبِها ضجرٌ كبيرٌ اكتشفتُه في عُزلتي عنِ العالم، كانَ لديها اكتئابٌ حاد،
أراها كلَّ الوقتِ صامتةً وشاردة، لا يُعجبها شيء، ولا تَبوحُ بما في قلبِها، وكانتْ منعزلةً عن النَّاسِ جميعِهم، ولا تَستطيعُ التَّعبيرَ عن رأيِها، ولكنَّها كانتْ مُهتمةً بكلِّ التَّفاصيلِ الصَّغيرةِ التي لم نكن نَهتمُّ بها، مثلا: (نظافة الطَّعامِ
والمكان) لديها وسواسٌ في النَّظافةِ والنِّظام، وبعد العصرِ تلجأُ للنَّومِ حتَّى لا يَرى صمتها أحد، إنَّها امرأةٌ نقيَّةٌ نبيَّةٌ مُرسلةٌ رحمة للعالمين،
أربعةٌ وأربعونَ عامًا وفجأة (بح) اختفتْ وتَفرَّقَ الأبناء، وذهبَ كلُّ واحدٍ في جهة، أنا أعاني كمعاناةِ أمِّي بالضَّبط، ولكنَّ أمِّي لجأَتْ للصَّمت، وأنا لجأتُ لكلِّ الوسائل، للتَّفكيرِ القهريِّ والكتابةِ والأطبَّاءِ والأدويةِ والانعزالِ عن جميعِ

المخلوقات، حتَّى ظنَّ الجيرانُ أنَّ بيتيَ مهجور، هناكَ مَنْ يضعُ أمامَ باب منزلي الحلوى بينَ مدَّةٍ وأخرى، ولكنْ لم ألمسْها، تَعفَّنتْ الفواكهُ والخضرواتُ والحلوى، وتراكمَ الغبارُ فوقَ الأكياس، وأدَّى ذلك لاستدعاءِ البوليس تَحسُّبًا مِنْ إصابتي بأيِّ مكروه!

أنا مصابٌ بالوعي، تَبخَّرَ الخيالُ وما عدتُ أؤمنُ بالأحلام، ولا بما يُخبِّؤهُ الحظ، ولا بكرى أحلى، وأشعرُ دائمًا أنَّني سأموتُ بسكتةٍ قلبيَّةٍ أو دماغيَّة وأنا نائمٌ ومِنْ غيرِ أنْ يَشعرَ بي أحد، أنا أؤمنُ الآن أنَّ الموتَ نومٌ أبديٌّ مِنْ غيرِ رجعة إلى كوكبٍ يُخبِّؤه لكَ الحظ، ليسَ هناكَ جحيمٌ ولا جنَّة ولا هذا الهراءِ المخادعِ المُستهلِكِ للطَّاقاتِ العقليَّةِ والجسديَّة، الجحيمُ هنا في هذه الجمجمةِ التي سوفَ تَتبخَّرُ مع الأيامِ كما يُثبِتُ العلمُ والنَّظرُ إلى الواقعِ لا الأحلام، كنتُ ضحيَّةً لمجموعةٍ بشريَّةٍ تَدَّعي أنَّها ضحيَّة لمؤامرةٍ كونيَّةٍ خارجيَّةٍ مِنْ غيرِ أنْ أعلمَ ما السَّبب؟

انفرضَ عليَّ أنْ أغوصَ في تفاصيل آثار عبور تركتْها عربةُ بعيرٍ مُحمَّلة بأطنانِ الباذنجانِ الحمصيِّ إلى درعا، رجلٌ ذو بأسٍ يُقلُّ تلكَ الأكياس في سوقِ الجمعة، كانَ أملُهُ أنْ يَجمعَ ثمنَ حقيبةٍ لابنتهِ التي تُوِّجَتِ الأولى في مرحلةِ التَّوجيهي، كانتْ تُريدُ أنْ تَدخلَ الطبَّ لكنَّ أمَّها حاصرَتْها في ميزانِ العُرفِ حينَ قالت لها:

(البنتُ ليس لها إلَّا بيت زوجها)

رفضَ والدُها انصياعَ ابنتِه في عالمِ القاذوراتِ البشريَّة التي تَتكاثرُ ككلابِ السُّهولِ البريَّة بلا أي فائدة، أرادَ أنْ يُميّزَها عن أبنائِه الثَّلاثةِ الذين حَشا في دماغِهم: (الرَّجلُ لا يعيبُه شيء)

شاءتِ الأقدارُ أنْ تَلدَ طفلةً مخالفةً لأمِّ السَّيد المسيح بنوعِ الحمل، لا فرق بينه وبينها سوى أنَّ جواميسَ السُّوقِ باهظةُ الثَّمن، وتُذَلَّلُ لحليبِها ولخراءِ تِبنها، إنَّهم أرقامٌ في تلكَ البقعةِ المباركةِ التي يَتدلَّى فيها الغِشُّ، وأكلُ لقمةِ عدم مراعاة الضَّمير بملعقةٍ ألقاها اللهُ منَ السَّماء، وسرقَها بائعُ السَّمنِ والزَّيت، ليَكيلَ بها رزقَهُ المبارك.

كيفَ سننجو منَ التَّفاصيلِ المُعيقةِ لمسيرِ الحقيقة؟

أتنفَّسُ مِنْ ثُقبِ مُؤخِّرة قملةٍ عَلِقتْ في غطاءِ مُعتقلٍ سياسيٍّ في فرعِ فلسطينَ للمخابراتِ العسكريَّة في دمشق، كفُّ ضابطٍ ككفَّةِ مخباطٍ لعجنِ قطعِ الأمينو تَنهالُ على وجهِ امرأة، كانتْ بالأصلِ ذاهبةً إلى الميدانِ لتحضرَ درسَ الصَّلاة على النَّبي في مسجدِ (حسن حبنَّكة الميداني) لم تتوقَّعْ أنْ تُواجهَ مظاهرةً تُطالبُ برحيلِ مُجرمٍ داسَ البلادَ هو
وأبوه، وخلَّفا ستين عامًا منَ الفساد.
أطفالُ الله، والمشرَّدون، والمطلَّقات،
والعوانس، والعاطلونَ عن العمل، والذين لا يعرفونَ لماذا خرجوا مع هذه الحشودِ سوى أنَّ هناكَ مَنفسًا في جوزةِ الحلق، كادتْ أنْ تَنفجر، فانفجرَتْ في الشَّوارع مِنْ غُبارِ الظُّلم، وأتربةِ المظلومين،

ومِنْ صوتِ بلال الحبشي يُنادي على كتفِ رجلٍ أعوَر:

الشَّعب السُّوري ما بينذل!

إنَّها هنا كي تعرف، إنَّها تَحملُ حزامًا ناسفا.

هم يَعلمون، واللهُ يَعلم، والمتظاهرونَ يَعلمون، وأنا أعلم، والرَّئيسُ يَعلم، والمخابراتُ تعلمُ... إنَّها بريئةٌ مِنَ الثَّورة،
ومِنَ النِّظام، ومنَ الله، إنَّها معصوبةُ العينين، عاريةٌ مِنْ ثيابِها، ومُعلَّقةٌ على صليبِ جدران المخابرات، مِنْ بعدِ أنْ اغتصبَها أمامَ الإلهِ حشدٌ مِنَ الثيرانِ التي مهمَّتها حماية الوطنِ والمواطنِ
وربَّ الوطنِ مِنَ الفوضى.

نحنُ الفوضى، دونَ وعيٍ أدكُّ ثلاثةَ خطوطٍ منَ المخدِّرات، تَقتحمُ أنفي وتَصعدُ إلى رأسي، دونَ وعيٍ سلكتُ طريقًا حذَّرتني الحياةُ منها، ودونَ وعيٍ خرجتُ مِنْ هذهِ الطَّريق، بعد علاجٍ دامَ عامًا كاملا، تحتَ ضغطٍ رهيبٍ لا تَحمَّلهُ العباراتِ الشِّعرية، ولا تَتحمَّلهُ المشاعرُ البشريّة، وبينَ الأدويةِ النَّفسيَّة، وجلساتِ العلاج، اكتشفتُ أنَّني شخصٌ غبيٌّ لدرجةِ أنَّني أنكرُ ذاتي، وأحاولُ ألَّا أنتقمَ لنفسي، وأنا في ذروةِ الوعي، وفي قمَّةِ التَّبصُّرِ الواقعيّ، أملكُ وقتًا كافيًا لإضاعتهِ في التَّفكير، وأقولُ بيني وبينَ نفسي:
كم كنتُ شخصيَّةً تافهةً مُغيَّبة تمامًا عمَّا جَرى آنفًا، وما يَجري لاحقًا!

أنا نسخةٌ مُصغَّرةٌ عن أمِّي، لكنَّها نسخةٌ ناطقة، تجاربها واقعيَّة.

12

(متى تَنتهي الحرب، ونُلقي السِّلاح،
ونَأخذُ عناقًا كبيرًا يُنهي النِّزاع؟)

هل تَعلم ما العُنصر الذي يَنقصُك؟

إنَّه سؤالٌ بديهيّ، وكلُّنا نَعلمُ ما نحتاجُ له، ولكنْ لدينا عُقدة أنْ نُخيِّبَ ما يَنقصُنا لجذبِ الانتباه! نَظنُّ أنَّ هذه الحركة سوفَ تَجلبُ لنا ما نَتمنَّاه، ولكنَّ الواقعَ يُرسلُ لنا رسائلَ حِسيَّة تُخبرنا: إنَّ كلَّ لحظةٍ مِنْ حاضرِنا تَتبخَّرُ وتُصبحُ جزءًا مِنَ الماضي، تَجعلنا نَخسرُ ثِقةَ الشَّبحِ الذي يَسكنُ أجسادَنا، ومِنْ أجلِ ماذا؟

مِنْ أجلِ لا شيء!

نحنُ مُجرمونَ بالجملة، بِنونِ المذكَّرِ الغائبِ الذي نَبحثُ عنهُ ونَهربُ مِنْ مواجهتِه، بِنونِ الجريمةِ والإفلاتِ منَ الهزائمِ الدَّاخليَّة مخافة الموت، تلكَ النُّون التي أنِسناها على طاولةِ جمع المذكَّرِ السَّالم، إنَّها النُّونُ القمعيَّةُ التي استعملَها للشَّماتةِ والشَّتيمة، نون الأمومةِ والأخوَّةِ والدفءِ والحنان والأمان والمسكنِ الذي نُحبُّهُ ونَكرهُهُ ونَخشاه، النُّونُ الآمرةُ
والمأمورةُ التي نخاطبُها بسوطِ الكسر الدُّنيوي الذُّكوري في مساحةٍ لا نَعرفُ حقيقتَها، نون ما قبل الزَّواجِ وما بعده

وفي الحملِ والوضعِ والرَّضعِ والتَّنظيفِ
والتَّنظيمِ والتَّكبيرِ والرِّعايةِ والنُّطقِ
والتَّشخيخِ مِنْ أجلِ أنْ يَكونَ للزوج ولدٌ يَحملُ اسمَه! وأنتِ؟
أنتِ أمَّهُ الغائبة مِن اسمِه ورسمِه وسمتِه وصمتهِ كبقيَّةِ النُّونات التي أُدرجَتْ في نصٍّ نبويّ، ليس لها قيمةٌ سوى في جدولِ الامتحاناتِ الوهميَّةِ بعد الموت:

(الجنَّةُ تحتَ أقدامِ الأمَّهات)

اضحكي بأعلى صوتكِ يا خانوم فقد ذُكرتِ في زوايا يَرفضُ العنكبوتُ أنْ يَبني عليها بيتًا رفضًا مطلقًا، {وإنَّ أوهنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يَعلمون}

لهذا السَّببِ أتساءل، متى تَنتهي الحرب؟

هو الطِّفلُ الذي لا يُريدُ أنْ يَكبرَ ولم يَتذكَّرْ مِنْ طفولتِه شيئًا سوى أنَّهُ كانَ يَرسمُ كلَّ الأشياءِ التي يَعجزُ أنْ يَشتريها له أبوه، خمسُ ليراتٍ سوريَّةٍ كانتْ تُقسَّمُ في دُكَّانِ (أم محمد) التي تبيعُنا الفولَ النَّابتَ قبل دخولِنا للمدرسةِ بساعة، في السَّاعةِ السَّابعةِ صباحًا كنَّا نَهربُ منَ البيتِ لأنَّ لا شيء فيهِ سوى الاكتئاب والفراغ، ولم يَشعر أحدٌ بالسَّعادةِ هناك، بل كانَ هناكَ خطأٌ يَكبُرُ مع الزَّمن، هو خللٌ يُخشى أنْ يُنطَق، نَعرفُه ونُنكره، يُشبهُ الصَّمتَ مِنْ دونِ سبب، إنَّ الخوضَ في السَّببِ يَنبشُ قبورَ الماضي بفأسِ مَنْ جمعَ رأسينِ غير متناغمينِ على وسادةٍ واحدة، مَنْ أخاطَ تلكَ الضَّحيَّة، وأبرزَ شروشها،

وزيَّنَ وجهَها بخرزٍ أزرقَ يَحمي تَرابطَها منَ الزَّوال، هي في كلِّ الحالاتِ زائلة، ولا تَحتاجُ إلى سببٍ للزَّوال، فأمام خلقِ الصُّدف تَنعدمُ الموجوداتُ بلحظة (بح!)

نَشتري بليرةٍ ونصف فولًا نابتا، وبليرةٍ بذورَ عبَّاد الشَّمس (بزر دوار القمر) السُّوسُ يَسبحُ بها، وسوسةٌ نَخَرتْ البذرة، كانتْ تُريدُ بيتًا آمنًا في كوكبِ بذور عبَّاد الشَّمس، كانتْ تُريدُ أنْ تُتزوَّجَ بسيسيٍّ ذكرٍ شجاعٍ مِقدامٍ يَحمي عشَّها وصغارَها، وكانَتْ آمالُها أكبرَ مِنْ كومةِ البذورِ التي تَتغذَّى عليها، سوسةٌ صافيةٌ نقيَّةٌ شريفةٌ عفيفةٌ في بذرةٍ تحملُ لبًّا يابسًا مُحمَّصًا بالملحِ على نارٍ هادئة، مُعبَّأً ببواري ورقيَّة مِنْ أحدِ كتبِ محمد الماغوط، جئتُ في ذاكَ الصَّباحِ اشتريتُ بيتَها وبيتَ جيرانِها مِنَ السُّوساتِ المتأمِّلاتِ الظَّاناتِ باللهِ وبالبائعِ والدُّكانِ والمُشتري والآكلِ خيرا،
وكنتُ مُخيِّبَ الآمال، في الفرصةِ الأولى فَتحتُ الورقةَ ووضعتُ البذورَ في جيبِ مريولي البُنِّي، ورُحتُ أهرشُ بشراسة، كنتُ آكلُ القشرَ واللُّبَّ منَ الجوع، أتساءلُ بعد تلكَ الأعوامِ التي مضَتْ بألمِها، لماذا كل هذه السِّنينِ كنتُ جائعًا؟ لأصطدمَ بسؤالٍ آخر:

متى تنتهي الحرب؟

طفلٌ كسولٌ لا فائدة منهُ خلف مِقودٍ خشبيٍّ في مدرسةٍ مُهترئة، يُكملُ عددَ أطفالِ الحيِّ الذين يَتفاخرونَ بعرائسِ الجبنةِ واللَّبنةِ والتُّفاحِ ومصروفٍ يوميٍّ يَكفي لإطعامِ قبيلة، شعورٌ مُمشَّطة،

ودفاترُ مُجلَّدة، وكتبٌ محفوظةٌ مِنْ كلامِ بقيَّةِ التَّلاميذ، وكأنَّهم يَتسابقونَ مَنْ يُرتِّبُ معدَّاتِ المدرسةِ بأكثرِ تكلفة،

وجوهٌ قبَّحَتها النُّطفُ المنكوحةُ في أنابيبِ النَّقلِ الجنسيّ، مِنْ قضيبِ ابن حرامٍ إلى بظرِ بنت حرام فوقَ قُبحِها،

ومُدرِّساتٌ حمقاواتٌ نازيَّاتٌ متخرِّجاتٌ مِنْ مزابل حزب البعثِ العربيِّ الاشتراكي، العفنُ يَعلو على التَّعلم، في مَدخلِ المدرسةِ مكتوبٌ بخطٍّ عريض (الجمهوريَّةُ العربيَّةُ السُّوريَّة) للوهلةِ الأولى عندما تَقرأُ (العربيَّة) تَشعرُ بأنَّكَ في مَسلخٍ بَشريٍّ يَعصرُ دمَ حيضِ زوجة عزرائيل ملك الموت، لتُكملَ القراءة (مدرسةُ اليرموكِ الابتدائية) اسمٌ لمعركةٍ خاضَها الغُزاةُ الذين يُسمُّونَ الأسماءَ بغيرِ اسمِها ليُوهموا المُتلقِّي، ويَعصروا على رأسهِ صوصَ الغباء، ليقولوا لك:

إنَّهُ فتحٌ مبينٌ مِنْ ربِّ العالمين!

إنَّها مدرسةٌ للأطفالِ سلَبتْ طفولتَهم تحتَ أسماء عنصريَّةٍ ذكوريَّةٍ قومجيَّةٍ إرهابيَّةٍ ومُقنَّنة تحتَ قُبَّة (مجلس الدُّولِ العربيَّة) لتكملَ القراءة (وزارة التَّربيةِ والتَّعليم) تَخطرُ ببالكَ وزارةُ الدِّفاعِ والتَّعبئةِ العامَّة، وكيفَ تَنمو ويَنمو في جوفِكَ حقدٌ عظيمٌ أعظمُ منَ الإلهِ على الاقترابِ مِنْ ثوبِ العروبةِ الزَّائفِ العفنِ القذر الذي يَجني للفردِ الذُّلَ والعارَ والكرهَ والفقرَ والزَّوال؟

يُربُّونَكَ على أنْ تُمسكَ دلوَ ماءٍ نقيّ، وتُمسكَ ممسحةً وعلبةَ لودلين لتنظِّفَ تحتَ أطيازِ أبناء قادة الوطن، ونَتفاخرُ أنَّنا مِنْ أوائلِ المتباركين بخراءِ ابن المسؤول، ليكونَ لنا صولةٌ

وجولةٌ لا فائدة مِنها سوى الخوف، وبينَ خوفٍ وخوفٍ لا أنامُ دونَ أنْ أتساءل:

متى تَنتهي الحرب؟

صورةُ ابنُ اللهِ كانتْ تَتجوَّلُ معنا في قلوبِنا، وما زالت محفوظةً وراسخةً في دماغِ عصافيرِ الزَّرزور التي كانَ مِنَ السَّهلِ اصطيادها، لم نَملكِ الحقيقةَ يوما، لأنَّ كلَّ الذي تَلقَّيناهُ خيالًا ووهمًا وفراغًا، يفرزُ رعبًا مِنْ أنْ نَمسَّ ملكَنا، نحنُ الذين لا نَملكُ منَ الوطنِ شيئًا سوى الألم، ليسَ لنا بيتٌ ولا أهلٌ ولا أصحابٌ ولا أحباب، في ذاكَ الوطنِ لا تَملكُ سوى قبرًا في المقبرةِ العامَّة، التي يَتغيَّرُ اسمُها كلَّما دخلَ عليها ظالم، كانوا يُسمُّونَها مقبرةَ البحَّار، وبعد ذلك أسموها مقبرةَ الثَّورة، وبعد مُدةٍ أضحتْ مقبرةً للشُّهداء، وبعد صلحِ المعارضةِ مع النِّظامِ أصبحَ اسمُها مقبرة ابن الله الذي لا يُنازعهُ في مُلكهِ أحد، أنا أملكُ منه الذَّاكرة فقط، ليس لي منَ الأحياءِ فيه سوى قبر أمِّي، أمِّي الرَّاحلة الرَّاقدة في مثواها الأخير، هي فقط مَنْ على قيدِ الحياة، والحظُّ يُلاحقُ الأحياءَ تارة، والأمواتَ تارة، ليُقيِّدَ ما لا أريدُ البوحَ بهِ على لوحِ التَّساؤلات:

متى تَنتهي الحرب؟

بيتُ الجدَّةِ التي فَقدَتْ عقلَها قبلَ أنْ يَرحلَ جدِّي، الطَّبيعةُ أنصفَتْ هذهِ المرأةَ وسلبَتْ عقلَها في ذروةِ فَقدِها لكلِّ شيء، تَجلسُ على حافَة الانتظارِ في بيتِ عمِّي الذي برَّ شيبَتَها، هي جاهزةٌ في أيِّ لحظةٍ للخروجِ والعودةِ إلى بيتِها الذي سقطَتْ عليهِ القذائفُ ودمَّرتِ الطَّابقَ الثَّاني

والثَّالث، أعتقدُ أنَّ الطَّابقَ الأوَّلَ بُنيَ بمالٍ حلالٍ صافٍ خالصٍ منَ القلب، لهذا السَّببِ بقيَ متماسكًا! يَسألُها عمِّي:

أراكِ جاهزةً يُمَّة شو بتستني؟

تُجيبُ بكلِّ ثقة: بستنى عامر مشان يوخذني عالبلد!

تَنتظرُ أبي الذي اعتُقلَ في عام 2014م

وإلى الآن لم يَعد، لأنَّ لا ظهرَ لهُ في عشيرةٍ همُّها طيزها وكرشها وفرجها، عشيرةٌ لو رُجمتْ بقنبلةٍ نوويَّةٍ لما تَأثَّرتْ على فَقدِ أحدٍ منها، لو كانَ لحياتي بقيَّة لطلبتُ مِنْ وزارةِ الدِّفاعِ الإسرائيليَّة أنْ تَرجمَ حوران بكلِّ وسائل القوة، وتَضمَّها إلى أرضِ إسرائيلَ المباركة العامرة بالازدهارِ والحضارةِ والثَّقافةِ والدِّيمقراطية، وبعدها سوفَ أسألُ نفسي:

متى تَنتهي الحرب؟

لقد انتهتِ الحربُ فعلًا مُذْ التزمتُ أمامَ نفسي بالتَّوقُّفِ عن تعاطي المخدِّرات وأكلِ اللُّحوم، وتَدخينِ الشِّيشة، وكلَّما تَذكَّرتُ ذاكَ المطَّاطَ لأُظهرَ الشِّريان وأحقنَ نفسي أُصابُ بدوخةِ المولود الذي رضعَ أوَّلَ رَضعةٍ مِنْ أمِّهِ واستفرغَ ما في بطنهِ وراحَ يَهذي ويُردِّد:

متى تَنتهي الحرب؟

13

(منَ اللَّوازمِ يلّي ما إلها لازم أنْ تتخلَّصَ مِنْ كلِّ شيءٍ تَلقَّيتهُ وتَبدأ منْ جديد)

أحاولُ كلَّ يومٍ مواجهةَ ذاتي بالحقيقة! كلُّ لحظةٍ تَمرُّ مِنْ غيرِ إدراكٍ للواقعِ هيَ جريمةٌ بحقِّ العقلِ والمنطق، المرآةُ تَكشفُ لكَ بأنَّكَ هذا أنت، ولكنَّها تَفتقدُ لشرحِ مشاعرِك، إنَّها بارعةٌ في إظهارِ تلكَ البثورِ المتمركزةِ حولَ أنفكَ المدبَّبِ الذي كلَّما رأيتَهُ فكَّرتَ كيفَ يُمكنكَ أنْ تكونَ ملياردِيرًا، لترمِّمَ كلَّ ما تَكرههُ بالمال، إنَّ كلَّ ما تَمرُّ بهِ مُجرَّد دروسٍ توعويَّة، تُحاولُ نسيانَها لأنَّكَ مُتشبِّثٌ بالغرائزِ الدَّاخليَّة، التي تَغرقُ بها في منتصفِ الخيالِ مع كأسٍ منَ الوسكي، مُتمنِّيًا ألَّا تَعودَ للحقيقة، ما تَرغبُ بهِ مِنْ رغباتٍ يَتبخَّرُ في لحظةِ ضعفٍ بصحَّتكَ أو سلبِ الأمان لوجودِك، وتتراكمُ الوقائعُ التي تَمنعُ عقلكَ منَ النَّظرِ إليها، إنَّ الذي تَمسَّكتَ بهِ يَحتاجُ إلى ضربةٍ قاسيةٍ على الوهمِ المتربِّصِ بكلِّ تفكيرك، كي تَصحو منَ السُّؤالِ العظيمِ المغروسِ في صدركِ كما يُغرسُ الرُّمحُ الرُّومانيُّ في قلبِ أسد المعركةِ المغوار ألا وهو:

أينَ أنتَ الآن؟

تُعلَّبُ الجريمةُ في صناديقَ للأغذيةِ البشريَّة، في قاعِ بحر الإله، بأكياس سوداءَ كقلبِ مَنْ يَهمُّ للانتقامِ لقبيلةٍ كانَ بالأمسِ ابنًا لها، واليوم هوَ الجنديُّ الوحيدُ المفقودُ الذي ألزمَ كلَّ قِواهُ ليثأرَ لدمِ الجرذانِ في مطابخِ الأمَّهاتِ في تلكَ الذَّاكرة، يَدسُّ السمَّ في تنكةِ الزُّبدةِ ذات الحجم الكبير، ويَلفُّها بحنانِ

الأبناء الذين كفَّنوا أمَّهم ودفنوها في بلدةٍ غزاها الإلهُ بسلطانِ غضبهِ وحكمتهِ التي لا يَقوى على فهمِها أكبرُ علماء السِّحرِ والنَّثر والبحرِ والمحيطِ والقافية.
دمٌ أسودُ يغوصُ في دستورِ الجمهوريَّة،
وقانونِ الدَّولة، وختمِ مختار أصابَهُ نزفٌ في مُؤخِّرته، فأسعفَهُ طنبورُ جارِه الذي سرقَ منهُ أرضَه بإبهام دار العدل في أعلى سلطةٍ للظلم، وأوراق تجري على مهلٍ في سرايا الجمارك مِنَ القاهرةِ إلى روما، يُبحرُ السرُّ والسِّحرُ والأمانُ
والرُّعبُ في سفينة سندباد وعلي ماما
وثمانيةٍ وثلاثين وليّا مِنْ أولياء اللهِ الصالحين، يُقيمونَ الحضرةَ على وقعِ الدُّفوف، ونَقْرِ الطُّبول، وذكرٍ للرِّفاعي
والهاشمي والشَّاذلي لتصلَ قافلة الخمورِ إلى قارَّةِ مأوى العجائز، وبين القارَّتينِ برزخٌ لا يَبغيان، فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان!

انحناءُ ملايين الأطفالِ في مصانعِ الدُّولِ الاشتراكيَّةِ التي وقَّعتْ اتفاقيَّةً اقتصاديَّةً مع الدُّولِ الرَّأسماليَّة، أصابعُ مَنْ يَحلمُ بأنْ يكونَ لديه حلم، كفَّاهُ مُتشقِّقتانِ تَنحتُ للآمنينَ مَصلحةَ أمنِ أبنائهم، ومستقبل عجزهم عن بناءِ شاهدة، في آخرِ سُبحةٍ يُسبِّحُ بها شيخُ القبيلةِ الذي يدعو النَّاسَ إلى العملِ الصَّالح، وتَشغيل الصِّغار
والكبارِ في معاملَ تَصنعُ الأحذيةَ لبلدانِ الرَّخاءِ على أنقاضِ مدينةٍ مُتهاوية ليس لديها وشاحٌ لردِّ برد الشِّتاء، استنزافٌ للطَّاقاتِ البشريَّة في عالمِ الفقرِ والجوع، تَصبُّ في طاقاتٍ بشريَّةٍ ألقوا في حاويتِها الخبزَ الأبيض، والحليبَ ذو الجودةِ العالية، واللَّحمَ المُبستر منتهي الصَّلاحيَّة، هناك حيث العالم الذين

بنوا بيوتَهم مِنْ بقايا القمامةِ التي تأتي بحاوياتٍ كبيرةٍ مِنْ بلدانِ الضَّرائب الماليَّة، وتُلقى الزَّبائلُ في وسطِ الوجع،
وتُنبشُ بأظافرَ بريئة، كي تَجني رغيفَ خبزٍ ابتلَّ بالبكتريا، وتَسبَّبَ بانحناءِ الظَّهر، وتَشقُّقِ الأكفّ والأقدام، تَجمعُ بقايا قمامة أبناء الله الخالصين المخلصين الذين لديهم تَرفٌ واكتئابٌ حادٌّ مِنْ مخلَّفاتِ الحريَّات والدِّيمقراطيَّة، طفلةٌ ترتدي الحجابَ في مَكبِّ الصَّحراء، علقَتْ في رأسِها مذكَّراتِ الأطفالِ ببشرَتهم الشَّقراء، تحاولُ أنْ تَجدَ الجزءَ الثَّاني مِنْ كتاب (تعلَّم الحروفَ الفرنسيَّة) كي تكتبَ نصًّا أدبيًّا في صحيفةِ العاصمة السِّنغاليَّة، عن حقوقِ الطِّفلِ المؤنَّث، لتمنعَ الجريمة،
وختانَ الإناث، وتحذيرَ البنات منَ الذَّهابِ مع الغرباء، كي لا تُغتصبَ ويَختفي أثرُها في القارَّةِ السَّمراء، ويُبحث عنها كما فعلَ بأختِها، وتبخَّر ذِكرُها بغسلِ دمِها تكريمًا لشرفِ القبيلة.

إبرةٌ حادَّةٌ تَدخلُ إصبعَ أمٍّ في وسطِ القمامة، مَنْ ألقى تلكَ الإبرة؟ ولمَ الأذى؟ ولماذا الأمُّ في مستنقعِ الأذى؟ ولمَ يُؤتى بالأذى مِنْ بلدِ الآخر؟ تُنبشُ أمراضهُ في هذا المكانِ كي يُتاجرَ بَفقرِ مَنْ يُسمُّونَهم عبيدا، ومكانهم المناسب في حاويةٍ كبيرةٍ سمراءَ لفرز قمامة البِيْض وأمراضهم الجينيَّة المُستعلية على سُمرِ البشرة، تَخترقُ الإبرةُ إصبعَها آتية مِنْ هامبورغ، ألقتْها امرأةٌ شقراء، قد حقنَتْ ذراعَها بالكوكائين كي تتوقَّفَ عن التَّفكير بأمِّها التي ارتكبَتْ جريمةَ قتلٍ بحقِّ أبيها، وكانَ مصيرُ الأمِّ في السّجن، ومصيرُ الأبِ في القبر، أمَّا الابنةُ في مأوى لرعايةِ أطفال الجريمة، كبرتْ البنتُ ولاحقتْها الذَّاكرة، وبدأتْ تُفكِّرُ بالهروبِ مِنْ كلمةِ ابنة المُجرمة. أبوها الظَّالمُ كانَ يَجلدُ أمَّها

بحزامٍ جلديٍّ مِنْ جلدِ البقر، والبقرُ يَرعى على جبالِ سويسرا، تُحيطُ به رعايةٌ صحيَّةٌ وإنسانيَّةٌ منَ الخضرةِ والجمالِ العارم والمناظرِ الخلَّابة.
إبرةٌ تَخرزُ جلدَها، وتَقتلعُ الذَّاكرةَ بخمرةِ المُخدِّرات، وتُلقي بها في سلَّة المهملات،
وتُسافرُ هذه الإبرةُ بلا جواز سفر، ولا حدود، ولا قال ولا قيل، لتحطَّ في مكبِّ عارمٍ بالفوضى والأمراض، ليُنبَشَ بأيادٍ بريئةٍ مِنْ ذنبِ مَنَ وقعَ في فائضِ الدِّيمقراطيَّة، وتَخرزُ الإبرُ بلا رحمة، تَشقُّ اللَّحم، وتَتركُ أثرًا مَرَضيًّا لا دواء له.

يَتصارعُ العالمُ على إيجادِ دواء لفايروس كورونا، بقبحِ العاهراتِ المُتخفِّياتِ بجلبابِ الإنسانيَّة، ويُهملُ ملايينَ الآفاتِ الكارثيَّةِ التي تَقتلُ البشريَّةَ بسلاحِ الحربِ والجوعِ والقهرِ والظُّلم، يَتحاشى المجتمعُ الدَّوليُّ ومنظَّماتُ حقوقِ الإنسان،
ومنظَّماتُ الطِّبِّ والإعلام النَّظرَ في مَنْ يَموتُ جوعا، أو يُقتلُ تحتَ تصفيةٍ سياسيَّةٍ مجحفةٍ لا ذنب للأطفالِ بها،
ويُسلِّطُ الضَّوءَ على ردودِ أذناب الخنازير، وعلى المعاركِ الكلاميَّةِ التي يخوضُها السِّياسيونَ والفنانونَ وشراميطُ الأدباء
والشُّعراء، وعواهرُ التَّنجيم والأبراج،
والسَّحرة والكهنة، وعلماءُ البلاطِ
ومماسحُ التَّبرُّك بالأحجارِ والجدرانِ
والبيوتِ الفارغة، التي نُسبوها بيتًا للهِ

ولأنبياءِ الله، وللسَّادةِ الذين انتفختْ بطونُهم باللُّحومِ والشُّحومِ والأجسادِ الملفوفةِ بالأقمشة، بأثواب مقدَّسة

وألسنةٍ معسولةٍ بالحديثِ والنَّقيرِ والقَّفيرِ والتَّرغيبِ والتَّرهيب، وأمرِ النَّاس بسلخِ بعضهم، وإغراقِ البشريَّةِ بالدِّماءِ منْ أجلِ وهمٍ لا أصلَ له.

تفاهاتُ البشرِ تَعلو مع رائحةِ الفساء كلَّما هبَّتْ تفاهة، وقبائحُ المواضيعِ تَطفو في سراديبِ الشَّاشاتِ الموصولة بمؤخِّرةِ شبكاتِ التَّواصلِ الاجتماعي، وتُنسى عن قصدٍ وبلا أخلاق، ولا إنسانيَّة، ولا ضمير صاحٍ مصائبُ الجوع، وتُهدرُ الأموالُ على أكياس بلاستيكيَّة تُطمرُ فيها مخدِّراتُ المافيات العالميَّة، التي تَعملُ في الأسواقِ السَّوداء، وعلى عينكَ يا تاجر، لتُحملَ بحاوياتِ الأطعمةِ مِنْ بلدانٍ مصدِّرةٍ للمساحيقِ السِّحرية التي تُسكتُ تَخبُّطَ العقل، وضياعَ الذَّات، ومواجهةَ الواقع،

والهروبَ بعيدًا تحتَ شعار: تعالوا نَسْكرُ

ونَخمرُ ونَحقنُ أنفسَنا بالضَّياعِ وقلَّةِ الحيلة، مِنْ رؤيةِ الخلل، وتحليلِ مُقتضاه ومعالجته قبلَ أنْ تَهبَّ في جسدِنا نارُ الإدمان، ونحقنُ شراييننا بغراماتٍ ثمنها بثمنِ صندوق طعام فيهِ ما لذَّ وطاب، يُحملُ بدلَ مَكبَّات النُّفايات إلى دولِ مَنْ قرأتْ في مزابلِكم بقايا كُتبِ أطفالكم بأنَّ ثمنَ الحريَّةِ باهظٌ.

عينُ اللهِ تحرسُ الممرَّاتِ السِّرية، التي وُضعتْ بها أطنانُ المخدرات، وأغرقتِ العالمَ بالفوضى، وقلَّةِ الحيلة، واستبدلتِ العقلَ بضياعه، وكلَّما تذكَّرتُ ما كانَ يَدخلُ عقلي، ويُفسدُ خلايا جسدي أبكي على نفسي، وأوهمُ العالمَ بأنَّني مشتاقٌ لمَن في القبور، كي أجني تَعاطفًا افتراضيًّا كاذبًا، لا فائدة منهُ سوى الأحزَنني والأسعدَني، أشعرُ أنَّني قويٌّ في ذروةِ ضعفي، أستطيعُ

كتابةَ ما يَتهرَّبُ منهُ الذين يَبحثونَ عن آلةٍ تجميليَّة، لترميمِ بشاعتهم، وإظهارِ صورتهم، ربَّما لصيدِ ضحيَّةٍ جنسيَّة، ربَّما لشهرةٍ عارمةٍ زائلةٍ لا قيمة ماديَّة لها، ربَّما ليَجنوا الأموالَ والخوفَ منَ الفقرِ بسببِ ماضٍ مرَّ بهِ أحدُهم، ويَخشى منَ العودةِ له،

وطالما أنتَ فردٌ تُفكِّرُ داخلَ دائرةِ (الرُّبَّمات) أعتقدُ أنَّكَ ما زلتَ صاحيًا منَ الوقوعِ في بئرِ بيعكَ لما تبقَّى مِنْ أثاث منزليٍّ كي تَشتري غرامًا منَ الكوكائين مقابل سكرةٍ تَستمرُّ ليومٍ أو يومين

وبعدها تَعودُ حليمة لعادتِها القديمة،

ويَعودُ التَّفكيرُ ليأكلَ رأسَكَ حتَّى تَبيعَ جسدكَ لمَن بَدأَ بالعدِّ التَّنازليّ للانهيار.

لستُ نبيًّا، ولا أرغبُ بأنْ أكونَ رسولاً، لا لشيء، لستُ مُؤثِّرًا ولم أتخيَّل يومًا أنْ أكونَ كذلك، ليس لديَّ أحلامٌ ولا آمال، لأنَّني أرى نفسي مُحطَّما تماما، أحاولُ أنْ أُنقذَ ما يُنقذَ مِنْ أجلِ لا شيء، ليس لديَّ وسيلةٌ سوى أنْ أكتبَ ما أشعر به مِنْ فوضى حقيقيَّة، يجبُ أنْ أنطق:

الأمانُ هو ذاكَ البابُ الذي كانتْ أمِّي تُحكِمُ إغلاقَهُ خوفًا منْ حكاياتِ ما بعد غيابِ الشَّمس، والآن لا أجدُ أمانًا أبدا، أشعرُ أنَّ أحدَهم سوفَ يَقتلُني في أيِّ لحظة، ربَّما هذا وهمُ ما بعد الشِّفاءِ منْ علاجِ الإدمان، وربَّما لا، أتمنَّى ذلك.

14

(إنَّ الوعيَ المنطقيَّ الذي بُنيَ على البراهينِ الواقعيَّة محكومٌ عليهِ إمَّا بالحبس، وإمَّا بالنفي، وإمَّا بالقتل، وإمَّا بالحججِ التي تَتنافى مع مصالح تقديس الوهمِ والمادَّة)

زهير

مَنِ الذي يُحدِّد ماهيَّة الوعي؟ وهل الوعيُ بالنِّسبةِ لي جهلٌ في وجهةِ نظرٍ غيري؟
وماذا يُفيدُ الوعيُ في محيطٍ يَتَّهمُكَ بالجنون؟ وهل الوعيُ يُطيلُ العمرَ أم يُقصِّره؟ وإنْ أطالَ العمرَ أو قَصَّرهُ ما الفائدة؟

كبْتٌ مُغلَّفٌ بأكياس منَ اليأسِ الورقيّ، عُقِدَ بأصابع خشنةٍ قادمةٍ منَ السُّهولِ التي يُزرعُ تحتَ فأسِها بَيضُ العقاربِ البريَّة، تعلو السَّماءُ سحبًا ورديَّة، خفيفة الهمّ، ثقيلة الوهم، يَعتقدُ مُدمِنو الصَّمتِ أنَّ الإلهَ نَسجَ مع الوجودِ معنًى ضبابيًّا لا يَعلمُه سواه، تُخبّئُ تحت بلاطةٍ في مطبخِها التي صمَّمتهُ على حسبِ اتِّساعِ مساحة مُؤخِّرتها في دائرةٍ حادَّةٍ مِنْ هذا الكونِ المتَّسع نقودًا ورقيَّة، عقَدَتْها بمطَّاطِ مؤسَّسة المصرفِ التِّجاريّ المركزي، وجدتْها بجانبِ دكَّان القرية، ووجدتْ ثلاثَ كراتين فارغة، قد سحبَتها خلسةً كي تَدفنَ في داخلِها معلَّباتِ مربَّى العنبِ مع الجَّوز تزامنًا مع مجيءِ شهر رمضان المبارك، فَتنتْ زوجَها الذي أنجبَ منها ثمانيةَ أولادٍ وبنتينِ في حِنَّة ابن

المختار، كانت تَضعُ على وجهها أحمرَ الشِّفاه، لأنَّ العروسَ ابنةُ خالتِها، رفعَ أخوها يدَهُ ولطمَها على وجهِها لأنَّ مساحيقَ التَّجميلِ عيبٌ في قريةٍ يُقيمونَ فيها مولدَ رسولِ اللهِ بجانبِ قبر مقام ابن الإله الذي دُفنَ تحتَ قفصٍ مَطليٍّ بطلاءِ الفضَّة، وعُقدَتْ على شبَّاكهِ مئاتُ اللَّعناتِ على ذكورٍ يَتراكضونَ إلى الصَّفتِ الأوَّلِ في صلاةِ الفجرِ ليلحقوا بحقولِهم التي تَضخُّ لهم دمًا ومالًا وتعبا، قبل أنْ تَلسعَهم حرارةُ الشَّمس، وتَسلخَ جلودهم.

شموعٌ تُشعَلُ على الشُّبَّاكِ مع تمتماتٍ لا تَعلمُ صاحبتها ما تَقول، تَظنُّ أنَّ الوليَ سينجدُها مِنْ وهمٍ افتراضيّ، قد تَدفعُ ثمنهُ حياتَها بأكملِها، عيونُ بعلِها التي تُلاحقُ مُؤخِّراتِ نساء الحيّ، وصدورهنَّ التي لم تَعرفْ اختراعَ الحمَّالاتِ الصدريَّةِ ولا البوتُكس، يَتجسَّسُ على الصُّدورِ العارمة، والمُؤخِّراتِ الغريبةِ الأطوار، تَكشفُه أكثر مِنْ مليونِ مرَّة، بعد أنْ تُجهِّزَ إبريقَ الشَّايِ وصحنَ المشمش، وهو يَجلسُ مُتربِّعًا أمامَ بوابةِ الدَّار، لا مُؤخِّرة في الحيِّ تُضاهي عريمَ مُؤخِّرة منَ أنجبَتْ لهُ قبيلةً مِنَ الأولاد، لا يَعلمُ عنهم شيئًا سوى أنَّهم يُعينونَهُ في حراثةِ الأرض، وسقايتِها وحَصْدِها بكلِّ صمتٍ ورضى، يُلقِّبُهم بأنَّهم (زُلم) ولا يُعيبُهم شيء، ولا يَعرفونَ عن الثَّورةِ الرَّقميَّة سوى الفضائيَّة العامَّة على شاشةِ الوطن، والقناة المحليَّة التي تَسوقُ أخبارَ الزِّراعةِ وبعضَ الأفلامِ الكرتونيَّة، لكلِّ شابٍّ في البيتِ مكانُه الخاص، كأنَّهم عبيدٌ حُكِمَ عليهم بالمؤبَّدِ مع الأشغالِ الشَّاقة، في راعيةِ أبيهم المدمن على كشفِ المناطقِ المُغرية في عقلِ أيّ رجلٍ جنسيّ، مهنتُه الجاسوسيَّة فقط، هو لا يَلمسُ الحرامَ ليس خوفًا مِنْ ربِّ الحرامِ والحلال، بل يَخشى مِنْ أنْ تَبورَ الأرضَ بسببِ مُؤخِّرةٍ لا يَحلُّ له أنْ يَشمَّ عبقَها، اعتادتْ على عيونِه المهترئةِ الغارقةِ في جفنيهِ المتدلِّيتين، الشَّيبُ خرجَ مِنْ غيرِ

سبب، سوى أنَّ موسمَ الحصادِ همُّه وهمُّ بناتِه خوفًا مِنْ كسادِهن، أو أنْ يَتأخَّرَ نَصيبهنّ، لم يُفكِّر بالصِّبيةِ يوما، لأنَّ الأولادَ مملوكونَ لمصلحتهِ بعد أنْ يَعجزَ عن القيام، ويَتبوَّلَ في فِراشِه، لا أحدَ يَعرفُ ما يُفكِّرُ بهِ هذا الرَّجل، بركانٌ يونانيٌّ لم يَثُرْ بحممهِ مِنْ قبلِ ميلاد المسيح، البنتانِ تَبرزُ أثدائهنّ، ويَظهرُ حبُّ الشَّبابِ على وجوهِهنّ، وتَكبُرُ البثورُ يومًا بعدَ يوم، ويَتناوبنَ بعدَ كلِّ مدَّةٍ منَ الزَّمنِ بلزومِ الفِراش، بسببِ قدوم الدَّورة، الإخوةُ غارقونَ بالتَّعب، والأخواتُ خادماتٌ لهم، ولا يُقدِّرونَ ألمَ الدَّورةِ الشَّهريَّة، الأختُ الكُبرى طُلِبَ منها أنْ تُعدَّ إبريقَ الشَّاي قبلَ أنْ يُعرَضَ برنامج ما يَطلبهُ الجمهورُ على القناةِ المحليَّة، زحفَتْ مِنَ الألمِ إلى المطبخ، دمُها يَسيلُ على ظُلمِ الذُّكور، حاولَتْ إنزالَ علبة السُّكَّر، والإبريقُ يَغلي، ويُوخِزُ بطنَها كالإبرِ الحادَّة، وقعَ الرَّفُّ على الأرض، وانفتَحتْ علبُ البهارِ والسُّكَّر والشَّاي، تَراكضوا إلى مطبخِ الطُّوبِ الصَّغير، جنَّ الأخُ الأكبرُ لأنَّها أوقعتِ الرَّفَّ المصنوع يَدويًّا مِنْ خشبِ شجرة الجَّوز المُتعفِّنة خلفَ الدَّار، وجنَّتِ الأمُّ لأنَّ كلَّ ما تَحتاجُه أفسدتْهُ البنتُ في لحظة، أمسكَ أخوها شعرَها وضربَها بجنونٍ ليُخرجَ كلَّ الكبتِ بعد حصادِ الأرضِ في جسدِ أختهِ التي لا تقوى على المشي، دمُ حيضِها، ودمُ فمِها ودمُ الدِّين، ودمُ القانون، ودمُ العاداتِ والتَّقاليد، ودمُ كل القبورِ المدفونةِ في جوفِ أنثى لملمَ أهلُها لحمَها في أكياس مظلمة، ودفنوها في ليلةٍ خلا فيها الذِّئبُ والقمرُ مِنْ بِصيصِ نور، سالَ دمُها فحملَتْها أمُّها إلى غرفتِها وأنَّبتْها ولم تُؤنِّبْ ابنَها الأحمق، ماذا فعلتِ يا نوال بالسُّكَّرِ والشَّاي والبهارات؟

لماذا أيُّها الإلهُ خلقتَ هذا السِّيناريو؟
ما الفائدةُ بأنْ جعلتَ كفَّةَ الجَّهلِ تَحكمُ الأغلبيَّة؟
الوعيُ مَنفيٌّ مسجونٌ مشنوقٌ بحبلِ مَنْ لهم كل هذهِ البيوتِ الباردةِ المدجَّجة بالرَّفاهيَّة التي يُذكرُ فيها اسمُ إلهٍ مُذكَّر، ليسَ له أمٌّ أو أختٌ أو زوجةٌ أو بنت، بيوتٌ مُذكَّرة، وظلمٌ مُذكَّرٌ كالسّيفِ والنَّارِ والغدرِ والقهرِ والشَّديدِ والقويِ والضَّعيف...
الحرفُ أيضًا مُذكَّر، والقبرُ مُذكَّر، والمفردُ مُذكَّر، والقانونُ مُذكَّر، والدِّينُ مُذكَّر،
والجهلُ مُذكَّر، والكِتابُ والقرطاسُ والقلمُ والرُّعبُ منشورٌ على حبلٍ كهربائيٍّ قَطعوهُ مِنْ عمودٍ مجهول، وألقوهُ على حافَةِ وادٍ ممتدّ، على أرضِهِ خيامٌ غجريَّةٌ أميَّة، لا يَعرفُ قاطنوها القراءة، ولكنَّهم يُجيدونَ الرَّقصَ والفنّ، ويَخلُقُ الشَّرُّ والخيرُ في أدمغتِهم خيالًا منصوبًا على أعمدةٍ تُحرّمُ على القماشِ لمسَ جدار الأرض، ولا تُقيم للأنثى نصيبًا مُذكَّرا سوى على فراشِ الجنس.

أنتِ الحبيبةُ عند غرغرةِ اللّذةِ والذَّبيحة، إلى فكرةٍ بغيرِ هذه اللّذة!
مُؤخِّرتها أشبعتهُ قمحًا ومشمشًا وعنبا،
صدرها المترنّح بعبقِ رطوبةِ ما يُنتجهُ الجسدُ مِنْ تَعرُّق، لم يستطع ضمَّها يوما، لأنَّهُ لا يُؤمنُ بالمودَّة، ولا بالرَّحمة، قاسٍ كأنَّه جمَلٌ تَغرقُ أقدامَهُ على رمالِها ليدوسَها بلا رأفة، كأنَّها جبلٌ منَ الصوفِ المنقوعِ بماءِ النَّبع، لم يُقبّلْها يوما، لأنَّهُ لم يرَ أباهُ قبّلَ أمَّه، ميراثٌ فارغٌ منَ المشاعر، كأنَّ الكتلَ البشريَّةَ عبارةٌ عن حجارة، خُلقتْ لينتقم بعضُها مِنْ بعضٍ عن طريقِ الرَّغبة، لم تُحاول أنْ تَمسحَ عرَقهُ المتساقط مِنْ جبينهِ وهو يُضاجعُها، خشيَتْ أنْ يَغضبَ

ويَترك فرجَها لصراخِه الذي يُشبهُ صراخَ جارِهم بائع البطِّيخ، يُمسكُ ثدييها ويَهزُّها بعنف، كأنَّه سيناريو انتقام، يُخرجُ ماءها بسرعة، وتَعضُّ على طرفِ ثوبِها مِنَ الألم، تَنتظرُ أنْ يَخرجَ ماؤه، مِن بعدِ عُسرٍ شديد، وعُنفٍ مُبرح،

وتَعرُّقٍ مُفزع، وعروقه تَخرجُ مِنْ وجهه،

وحُمرةٍ تعلو جبينَه، وزوبعةٍ منَ النَّفض،

وإعصارٍ منَ الرَّكل، وصرخة خروج الرُّوحِ مِنْ ثقبِ أذُن طفلة، قد أمسكَتْ بيديها نسوةُ الحيّ لشرطِ قطعة لحمٍ مِنْ بظرِها، وتَتدفَّق المياهُ ليبتلَّ الفراش، ويَسحبُ المحاربُ سيفَه مِنْ بعدِ قتل الضَّحيَّة،

ويَتركُها للفراغِ مُرتديًا سروالَهُ غير آبهٍ لعجزِها وعاطفتِها وشقائِها مِنْ أجلِه، ومِنْ أجلِ أولاده، ومِنْ أجلِ بيتِه.

يَعدُّ نفسَهُ ضيفًا ثقيلًا بائسًا زمجيرًا غليظًا صلبًا وشديدا، أسنانُه مطليَّةٌ بالصُّفرة، منخورةٌ نخرًا منَ السُّوسِ الذي يَتجوَّلُ حولَها، رائحةُ لثَّته الملتهبة، والشَّيبُ كلَّ يومٍ يَتَّسعُ في رأسِه ولحيتِه، دخَّانُ سيجارتِهِ جزءٌ لا يَتجزَّأُ مِنْ ذاكرةِ المكان والزَّمان، في بيتٍ جميع أركانهِ صامتة، تَخشاهُ وتَخشى دخولَه، والكلُّ يَصيرونَ (كالتُّوتو) يَطلبونَ رضاهُ وعفوهُ وعدمَ غضبِه أورفع صوته، التِّلفازُ مَوجَّهٌ نحوَ وجهِه، وعلبةُ السَّجائرِ بجانبِه، وأربعُ وسائدَ تحتَ إبطِه، وكأسُ الشَّاي،

والإبريقُ، والهاتفُ الأرضيّ، ودفترُ الهاتف، رجلٌ مدفونٌ بجلابيَّةٍ رماديَّة، غضبُ اللهِ في وجههِ يَتحكَّمُ بهيبتِه، بمؤخِّرتِها

وبيتِها وأحلامِها وأبنائِها ومزرعتِها التي ورثتْها مِنْ أمِّها، ومطبخِها الطُّوب الذي لم يُفكِّر يومًا بأنْ يصلحَهُ لها، ولا بالبوتوغاز المهترِئ، ولا بتغييرِ الغسَّالة القديمة، ولا بثوبٍ جديدٍ يُقدِّمه لها، في يديها أربعة عشرَ سوارا، وثلاثة خواتمَ منَ الذَّهبِ الخالص، هي تَعتقدُ أنْ حليَّها له، ولهُ أيضًا بعدَ كلِّ عودةٍ منَ البستانِ طعامٌ شهيٌّ مِنْ غيرِ أنْ يَتأفَّفَ أو يَتذمَّر مِنْ طبخِها، يَأكلُ كلَّ شيء، يَأكلُ الأخضرَ واليابسَ ويَحشُّ منَ الحشيشِ بينَ كلِّ لقمةٍ وأختِها، يَحشُّ قطعًا كبيرةً مِنَ البصلِ الطَّازج والجرجيرِ والكزبرة، وتَضيعُ في فمهِ اللُّقمةُ بلمحِ البصر، لها أنْ تُنجبَ منَ البنينِ والبناتِ ما يَحملُ اسمه، ولا سُلطة لها في هذا المكانِ إلَّا بعد دفنِه!

قويٌّ هو، كيفَ لهذا الجَّملِ أنْ يَموتَ

ويَنبُتَ فوقَ جثَّتِه حجرٌ بلا اسمٍ ولا فاتحة كِتاب؟ تَحلُمُ كلَّ يومٍ أنْ تُرمَّلَ لتَحكُمَ الدَّارَ والأغلالَ والبستانَ والأولاد، وتَشتري لنفسِها قطعةَ قماشٍ لترمِّمَ هيبتَها أمامَ الجيران، وتُصبحَ الحاكمَ الذي لا شريكَ له، وكل هذا السِّيناريو مِنْ أجلِ ماذا؟

لمَنْ يُكتَبُ هذا الأدب؟

مِنْ أجلِ مَنْ أدوِّنُ كلَّ هذا القهر؟

ماذا لو كانَ الوعيُ مُستويًا مع الجهل؟

لم تَعد تُراودُني المخدِّرات، أشعرُ بأنَّني أريدُ أنْ أستيقظَ أكثر، أريدُ أنْ أعرفَ أكثر، عمَّا يَجري حولي، ولماذا هذهِ الفوضى؟ ومِنْ أجلِ مَنْ؟

القهرُ وقساوةُ الحياةِ تَمنعُ النَّاسَ منَ الوعي، وتُلزمُهم بالحياةِ الأوتوماتيكيَّة، يُنتجونَ ليَعيشوا، ولا يَعون أينَ تَقفُ أقدامُهم ومِنْ أجلِ ماذا؟

أريدُ جوابًا لا لبسَ فيه، مِنْ أجلِ لا شيء!

15

(يلعن أبوكم، حبّوا بعض)

أبوي.

جُلُّ الآباءِ على هذا المستوى مِنَ التَّزمتِ غير المنطقي، كأنَّ الذي يَخشونَهُ مِنْ فُرقةٍ بينَ الأبناءِ قد حَدَث، وظهرَ هذا الشَّرخُ الكبير، هناكَ وقائعُ حدثَتْ لا تُكتَب، ليس خوفًا منَ الماضي، إنَّهُ احترامٌ غير منطقيٍّ لسِرّ العائلةِ والمُلكيَّةِ الفكريَّة الخاصَّة للبيت، أنا أَحَدُ سيناريوهاتِ تلكَ المَشاهد، كنتُ فيها كومبارسا، لم أشعرْ أنَّني البطل إلا عندما تَقعُ المصيبةُ عليَّ شخصيًّا، لم أُدركْ أنَّ عائلتي عانَتْ مِنْ أجلي بسببِ أمور كنتُ في غنًى عنها، لم أشعُرْ بهم أبدًا إلَّا بعد فواتِ الأمان، لأنَّ الوعيَ غائبٌ ليسَ له أثر، عاطفتي الزَّائدةُ والحساسيَّةُ المفرطة قضَتْ على كلِّ قراراتي فيما مَضى، حتَّى أتى اليومُ الذي أَنكرتُ بهِ نفسي، وكَتبتُ كتابًا تافهًا عنوانه: (هذا ليس أنا!)
إذَنْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّبح؟

عشتُ في مدينةٍ متآكلة الذَّاكرة، ليستْ واضحةً بسببِ الوهم، وطمسِ الهويَّة، وتَشعُّبِ الإيمان الكاذب، الذي بُنيَ على العاطفةِ لا العقل في قضاياها، ومِنْ فَرطِ الوهمِ كانَ العقلُ في إجازةٍ أبديَّة، كانَ منفيًّا ومُلقى خارجَ الوطن، أو في سُجونِ الوطن، لا تَعرفُ مَنْ حولك، وتُنكرُ أفعالَهم التي تُخالفُ أقوالَهم، جنونٌ زائفٌ كاذبٌ يَلتفُّ حولَ الكاذبينَ والحَمقى الأثرياء، الجوعُ يَتجوَّلُ بينَ

البيوت، وفي أحشائِها، دُفِنَت بصمتِهِ آلافُ الأُسَر، يُفكِّرونُ فقط كيفَ يَحصلونَ على مؤونةِ الشِّتاء، ومؤونةِ رمضان، وما بعد رمضان، الأحداثُ هنا تَتسارعُ على أمورٍ تافهة، يُوهمون أنفسَهم أنَّهم على قيدِ الحياة، وبينما يَتركُ البومُ مسافةَ صمتٍ بينَ الحُروشِ والحواكيرِ والفئران، تَفرُّ مِنْ بيتٍ إلى بيت، كانَ اللهُ والسُّلطانُ والملائكةُ والشَّيطانُ يَتعاونونَ على استعبادِ البشر، وتَقنينِ القوانين، تحت سنَّةِ الإيمان بقضايا الوطن، لتفتيتِ العقول، وسحبِ ما تَبقَّى مِنْ قِوى العبيد، لإكمالِ مشروعِهم الكبير، ألا وهو: الاستيلاءُ على الوطن!

يَضعونَ مُفتيًا وخوريًّا ورجلَ علمٍ على كرسيٍّ خاصٍّ لحمايةِ لصوص الوطن، كانَ المفتي سفَّاحا، والخوريُّ ذبَّاحا، ورجلُ العلمِ نازيّا، كانتْ العصابةُ عربيةً مُحكمة، تَدوسُ على كلِّ الأقليَّات في الوطن، وكأنَّ الوطنَ ملكُ الذي أنجبَهم!

جميعُنا يَعلمُ أنَّ مَنْ أمسكَ قبضةَ الوطنِ استعملَ العروبةَ ليدوسَ على كرامةِ المواطنين، ويَستعبدُهم، ويَجعلهم كالثِّيران لحقلِه الكبير، الذي يَمتدُ مِنْ شرقِ حلبَ إلى غربِ حوران، العروبةُ الاشتراكيَّةُ مبنيَّةٌ على كراهيَّةِ الآخرين، وتَدَّعي أنَّها حاضنةٌ لكلِّ مَنْ لهُ دين، ومَنْ ليسَ لهُ دين، عُمِّرتْ السُّجونُ بمباركةٍ مِنْ رجالِ الدِّين المسلمين، وبعدها رجالِ الدِّين المسيحيين، والذين رَفَضوا كالدُّروز واليهودِ والسِّريان، كانَ مصيرُهم بالنَّفي، أو القتل، أو الهجرة، أو يُلقونَ في عالمِ التَّأهيلِ ليكونوا عبرةً لمَن يَعتبر،

والقوميَّات الأخرى كالأكرادِ مُسِحَ بكرامتِهم الوطن، أشباحٌ في المعمورةِ تَمشي بلا هويَّات، ولا وثائق، ولا أي شيءٍ يَنتمي لدولةِ اللُّصوصِ

والإقطاعيين، ثلاثُ أجيالٍ كرديَّة، أبناءُ هذا الوطن، وأحدُ أعمدتهِ ومزيجهِ الفنِّي والوطنيّ العريق، داسَ العربُ النَّازيّونَ على حقِّهم في الأرضِ والعرضِ والقانون، سُلبتْ أموالُهم وبيوتهم، وسُجنَ رجالهم، وأضحتْ نِسوتُهم عاملاتٍ في حقولِ القُطنِ الشَّاسعة، تحتَ قبضةِ رجلٍ عربيٍّ أمّيٍّ أحمقَ لا يَعرفُ أنْ يَفكَّ الحروف، ولا يَعلمُ عددَ أبنائِه الذين أنجبَهم، أمَّهاتٌ كرديَّاتٌ برائحةِ زهر البابونج، عانينَ تحتَ قبضةِ الفقرِ والنَّفيِ والخوف، ملكاتٌ جميلاتٌ رقيقاتٌ كنفحةِ الرَّبيع، شجاعاتٌ باسلاتٌ شَهماتٌ كالصُّخور، كانتِ المرأةُ في كنفِ مَنِ استعملَ العروبةَ لردعِ المواطنين،

وقهَرَهُم وجعَلَهُم سبايا وضحايا لحوادثِ البطولةِ والرُّجولة العربيَّة الزَّائفة الهشَّة، كيفَ لكَ أنْ تَصِفَ صبرَهنَّ وقهرَهنَّ

واستعبادَهنَّ ببعضِ كلمات؟

كانَ الرَّجلُ في تلكَ البقعةِ يَتحمَّلُ ضغطَ وحمولةَ البِغال والحمير، وكانَ القانونُ

والدِّينُ والأعرافُ والتَّقاليدُ قد أعطوا للرَّجلِ الحريَّة ليُفرِّغَ غضبَهُ بأهلِ بيته، ويَفعسَهم، ويَدعسَهم، ويَركلَ مشاعرَهم،

ويُحطِّمَ شخصيَّتهم كما يَحلو له.

كيفَ تَنجو مِنْ عالمِ العبوديَّة، عندما يَعودُ الرَّبُّ إلى المنزل؟ يعودُ وفي رأسِهِ ورأسِكَ ورأسِ القانون، ورأسِ الدِّين بالحديثِ النَّبويِّ الذي قال: (أنتَ ومالُك لأبيك!)

كانَ الرَّجلُ يُركَلُ بسوطِ معلِّمه، أو مديرِه، أوسيّده، أو شيخِه، أو أبيه، أو قانونِه الذي زَرَعَ في دماغِه: (الحيطان لها آذان) تركيبةٌ أدبيَّةٌ شعبيَّة، وتَجربةٌ واقعيَّة، نحنُ لا نَعرفُها سوى منهم، مِنْ تلكَ الأيامِ وأنا أسألُ نفسي:
ما نوعُ المَشاهدِ التي شاهدوها حتَّى جعلَهم الخوفُ مكَناتٍ لإنتاجِ الجَّهلِ والتَّخلفِ والرَّجعيَّة، والهروبِ مِنْ مواجهةِ القانون الذي يَستعبدُهم، ويَأكلُ حقَّهم، ويَسرقُ لقمةَ خبزهم، وهم في قمَّة السَّعادة؟
كيفَ لكَ أنْ ترى تعبَ أهلكَ يُسلبُ ويُهدرُ ويُسرقُ على مرآى عينيكَ فتصمُت؟ وترى القاضي رضيَ بالقهرِ والذُّل!

كانَ الفجرُ مُفزِعًا بالنِّسبةِ لهم، كانَ الوطنُ مِنْ بدايةِ الكونِ جاهزا، رفعوا حالةَ الطَّوارِئ ما داموا يَقظين، كانوا يُحبُّونَ النَّوم، ويَستنجدون بالنِّسيان، ويَتحدَّثونَ بأمورٍ تافهة، ليتجاهلوا كلَّ هذا الخراب، لم نَكنْ نملكُ بيتًا، ولا أرضًا لنبني عليها بيتا، كنَّا نَدفعُ أُجرةَ البيتِ لصاحبِ المبنى، كانتْ ابنتُه حافظةً للقرآن، ومُدرِّسة في أحدِ المساجد، يَأخذونها لفرعِ المخابراتِ بينَ مُدَّةٍ وأخرى، وكانَ النَّاسُ يَخشونَ أنْ يَطرقوا بيتَهم، لأنَّ في البيتِ امرأةً مشبوهة، وعدوَّةً للوطنِ والعالمِ أجمع.
لم تَكنْ أمِّي تُصلِّي، ولم تَكنْ تَرتدي حجابا، كانتْ امرأةً حرَّة، تملكُ فائضًا في التَّفكير، وليسَ في دماغِها ما يعيقُها، بل كانتْ تَبحثُ عن سببٍ يُعيقُ كلَّ هذا الخراب، كانَ أبو أمِّي فلاحًا، مزارعًا، راعيًا للأبقارِ والغنم، ويَملكُ قبيلةَ دجاجٍ
ودِيَكة، وعنده خيرٌ كثيرٌ منَ البيضِ

والحليبِ والسَّمنِ البلديِّ والجُبن واللَّبنِ الرَّائبِ والزُّبدة، ويَزرعُ كثيرًا منَ القمحِ والخضار، كانتْ أمِّي تُقلِّلُ منَ الذَّهابِ إلى بيتِ أهلِها مِنْ أجلِ ألَّا يقولوا عنها ذهبَتْ إليهم كي تُقاسمَهم خيرَهم الذي مِنْ تَعبِهم وشقائِهم، كانت أمِّي مُنفردةً ومُنعزلة، تُحاولُ أنْ تَكسبَ ودَّ الكلّ، ولكنَّها أرادَتْ أنْ توقفَ ما يَجولُ في رأسِها مِنْ متاهةٍ وجوديَّة، في وطنٍ مشروم الكس بسيفِ خالد ابن الوليد

ورُمحِ باسل الأسد، تَأثَّرتْ أمِّي بخُلُقِ ابنة صاحب المبنى، لأنَّها كانتْ منعزلةً عن العالمِ ومنغلقةً بسرِّها، تُريدُ ونسًا، تُريدُ إرادةً كي تُحرِّكَ السُّكونَ المكتسبَ مِنْ أهلِها، لم نَعرفْ ما الدِّين؟ ولا معنى أنْ تَكونَ مسلمًا! لم تَكتسِبْ أمِّي الإيمانَ مِنْ أهلِها، لأنَّهم كانوا أشخاصًا فلَّاحينَ وعفويين، وكانوا لا يُريدونَ الاقترابَ مِنَ السِّياسةِ والدِّين، همُّهم أنْ يَقهرَ المجتمعُ نفسَهُ بالعملِ المتواصل، كي لا يَستيقظَ الوعي، كانَ الغباءُ يَتجوَّلُ في المساجدِ

والكنائسِ والمدارسِ والشَّوارع، وما تلقَّيناهُ كانَ خطأ، لا صحَّة له، كانَ كلُّ مَنْ علَّمونا في المدارسِ بلا شرف، ولا ضمير،

ولا ذِمَّة، ولا وِجدان، كلُّ همِّ المعلِّم أنْ يَحفظَ الطَّالبُ الدَّرسَ مِنْ غيرِ أنْ يَفهمَ النَّص، وكنَّا نَخرجُ في طيزِ أزمةِ البرد، نُردِّدُ الشِّعار، ونَقرأُ النَّشيد، دونَ أنْ نَفهمَ معناه، لا نَعرفُ معنى وطن، ولا مواطن! كنَّا حَمقى بالجُملة، ومَنْ يُعلِّمنا أيضًا أحمق، كانتْ كلُّ المَشاهدِ في البيت، أو في المدرسة ذَهَبًا، لكنَّهُ (فالصو)

تَعلَّمْنا كيفَ نكونُ جُبناء، ونَحترمُ النَّاسَ حتَّى وإنْ أساؤوا لنا، كانَ أبي يَضربُنا إذا شكى أحدُ الجيرانِ منَّا، بلا سببٍ ومِنْ غيرِ أنْ يَفهمَ أنَّ الآخرَ أخطأَ في حقِّنا، يُمسكُ حزامَهُ الذي اشتراهُ مِنْ لبنانَ - حزام جلد تمساح

أصلي- يَضربُنا حتَّى تَزرقَّ جلودنا، لم نَكرَهُ يومًا، لأنَّهُ عظيمٌ في قلوبِنا، ومكانته لا توصفُ في أرواحِنا، ولكنَّ آثارَ الظُّلمِ لم تُمحَ مِنْ مَشاعرِنا.

تأثَّرتْ أمّي ذات انزلاقٍ في التَّفكيرِ عن مَعنى الحياة، بالأحرى تَعبَتْ منَ التَّفكير، وأرادَتْ أنْ تَأخذَ إجازةً دائمةً منه، ومِنْ كلِّ ما يَدورُ حولها مِنْ مشاهدَ غير منطقيَّة، ارتدتِ الحجابَ، ووقفَتْ أوَّل مرَّةٍ أمامَ القِبلة، كنَّا ليلتها نُشاهدُ فيلمًا كرتونيًّا مميَّزًا بالنِّسبةِ لنا، فتركنا مشاهدةَ الفيلم، ووقفْنَا أمامَ مشهدٍ لم نَرهُ مِنْ قبل، ماذا يَجري؟ وكيفَ انقلبَتْ هذه المرأةُ على كلِّ تَساؤلاتِها؟ مَنْ يُصدِّقُ أنَّها ارتدَت السَّواد، فزادَها فوقَ انعزالِها انعزالا! الهروبُ إلى الوَهْم، وتركُ تحريك قدر العقل، والتَّعبُ المُتراكم، والتَّنازلات المحيطة في سجنٍ عظيم، مثل تلكَ الأمور هيَ مَنْ تَجعلُ النَّاس يَتركونَ كلَّ شيء، أنْ تَحلمَ بأنَّ كلَّ أفعالكَ سوفَ تُؤجَرُ عليها، ولكنْ ليسَ هنا في الواقعِ بل ما بعد الموت!

يُطلقونَ عليه إيمانا، وهو الذي يُعطيكَ ضماناتٍ وهميَّة، وافتراضيَّة، لا حقيقة لها، ولكن بعد الموت، إنَّهُ الإيمانُ الذي يَردعُكَ لتكونَ بقرة، كبقيَّةِ البقرِ في حضيرةٍ بلسمها وبرسيمها الوحيد الإيمانُ بالوهم،

ومِنْ أجلِ محاولة تَجميلِ هذا الوهم يُطلقونَ عليه (الإيمان بالغيب)

أفكارٌ غبيَّةٌ تُرقِّعُها أفكارٌ غبيَّة، تُولِّدُ للعالمِ مخلوقاتٍ خُتِمَ على طيزِها:

(هذا الفردُ يَصلحُ للعبوديَّة) وإذا حاولَ الفرارَ مِنْ أنْ يَكونَ صالحًا، ومتماشيًا مع ما تفرضُه السُّلطةُ والعادات، وما يَفرضهُ الدِّين، فإنَّ عليهِ أنْ يَختارَ اختيارًا صعبًا وهو: المغامرةُ في حياتِه والذَّهابُ إلى (بيتِ خالته) يَعني إلى المخابراتِ بقدَميه، وإذا كانَ الفردُ يُرافسُ ويُعافطُ كالبقرةِ البريَّة، ستأتيهِ قافلةٌ

مُصفَّحة بالخنازيرِ المخابراتيَّةِ التي لا تَعرفُ الرَّأفة، ولا الرَّحمة، لتقتادَهُ إلى عالمِ الغيب، ولا بدَّ أنْ تُؤمنَ بعالمِ الغيب، حتَّى تَضعَ كلَّ أحمالِكَ وهمومِك، عند مَنْ لا تَضيعُ عندَهُ الودائع، وفي كلِّ الحالاتِ إنَّ ودائعَ الفردِ والمجتمعِ ضائعة، مثل الطاسة الضَّايعة يلي مو معروف قرعة هالقصَّة مِنْ وين جايبينها.

كانَ القهرُ دستورًا وديناً ودُنيا للجميع،
وكانَ يَتقصَّدُ بعضُهم أنْ يقهرَ بعضًا بلا أيِّ رحمة.
المرأةُ في تلكَ البقعةِ إلى يومِنا هذا مقهورةٌ بكلِّ الوسائل، انصدَمَ النَّاسُ هنا وهناك بعد الثَّورةِ الرَّقميَّة بما حملناهُ مِنْ أحمالٍ لا فائدة منها بل ضَرَّتْنا، وضرَّتْ بمستقبلِ كلِّ واحدٍ فينا، ودونَ أنْ نُركِّزَ على معالجةِ واقعٍ مِنَ الصَّعبِ مُعالجته في وسطِ هذه الفوضى الدَّمويَّة اليوميَّة، رُحنا نَنتقِمُ مِنْ كلِّ شيء، وحتَّى مِنْ أنفسِنا، نَحنُ نَعلمُ جيدًا أنَّنا أداة في الوقتِ الضَّائعِ مِنَ المعركة، ونَعلمُ أنَّ لا فائدة إنْ نَطقْنا، أوتَحدَّثْنا، لأنَّ الكلامَ لا يُعمِّرُ وطنا، والوطن منَ المستحيلِ أنْ يُبنى على أساساتٍ خاطئة، كالأساسِ النَّازيِّ العُقَدي المُعقَّد بالأمراضِ النَّفسية، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والسِّياسيَّة، والثَّقافيَّة!

مِنْ وين بدَّك تبدأ ولَّا مِنْ وين؟

ليسَ لدينا أيُّ مقوّماتٍ علميَّةٍ بكيفيَّةِ أن نَبني وطنًا، أو أي فكرةٍ بأنْ يُحبَّ أحدُنا الآخر! نحنُ أجيالٌ تَربَّتْ على الكراهيَّة، بسببٍ ومِنْ غيرِ سبب!

بدّي أحب مين ولّا مين يابة؟ لو سألتَني:

هل أحبُّ نفسي؟

لأجبتكَ: لا

نحنُ قنابلُ مُؤقَّتة، قابلة للانفجارِ في أيِّ لحظة، نحنُ نَنفجرُ فِعليًّا في كلِّ لحظة،

وفي كلِّ وقت، ولكنَّ انفجاراتنا فرديَّة، لا فائدة منها لأنَّها تُشبهُ (الضراط على البلاط) نَحتاجُ لهيروشيما تَهدمُ كلَّ شيء، لتبني أساساتٍ جديدة، فكريًّا وعمليًّا، لدينا خططٌ كثيرةٌ لكنَّها فرديَّة، تَخدمُ مصلحةَ فئةٍ معيَّنةٍ مِنَ النَّاس، لدينا عقولٌ جبَّارة لكنَّها محشوَّة بالتَّطرُّفِ والاستغلالِ والعبوديَّة، نحنُ لا نُحبُّ بناءَ حياةٍ جديدة، لهذا السَّببِ هَربْنا إلى الغرب، لأنَّنا لا نَملكُ أملًا للعودةِ إلى الوراء، أو للمضيِّ إلى الأمام، لدينا تجربةٌ قويَّة، وذاكرةٌ حادَّة، لا يُمكنُ أنْ نَنخدعَ مرَّة أخرى، لأنَّنا نُعاني مِنَ الجغرافيا، وإلزامِها لوجودِنا في مناطق النِّزاعِ العالميَّة، نحنُ لسنا طعمًا لأحد، نحنُ مجرَّد طعم، زُرعنا بالصُّرمايةِ العتيقةِ لخدمةِ فئةٍ تَملكُ نزعةً قياديّة، لدعسِ الوطنِ والمواطنِ وقهره بالقوَّة،

والتَّمكُّن منهُ حتَّى لو تَحالفَ مع الشَّيطان، واستعملَ كلَّ التَّنظيماتِ لحمايةِ وهمه مِنَ السُّقوط.

سقطَ كلُّ شيءٍ مِنْ عينيَّ بعد ضربةِ الوعي، تركتُ كلَّ ما أريدهُ بإرادةٍ منّي، إلقاءُ المخدِّراتِ في التواليت لم يَكنْ قرارًا، ولكنَّني تَذكَّرتُ أبي عندما قالَ

لنا: (حبُّوا بعض) الآن نحنُ أصدقاء، كلُّ واحدٍ لهُ عالمه بشرطِ ألَّا يَتدخَّلَ أحدٌ بعقلِ الآخر، أو بطريقةِ تفكيره، تَجمعُنا جملةُ أبي التي لم تَرحلْ مِنْ دماغي أبدًا، ولم أفهمْ ما معناها إلَّا بالمنفى والغربةِ ومشاهدةِ العالم بمشهدٍ آخر، مشهد التَّكَفُّف لا التَّكيُّف، والابتعاد عن كلِّ شيء، لأنَّ التَّفاهةَ فاقتْ حدَّها...

أحبُّكَ يا أبي رغمَ كلِّ شيء، حبيبي أبو ميسم شو مشتاق أضمَّك.

16

(ثقافةُ الاستملاك، نتائجُها صفر)

جرَّبتُ كلَّ وسائلِ الكتابة، لأحاولَ الانخراطَ في المجتمعِ البائسِ المُتصنِّع، الذي يُحاولُ جاهدًا استخدامَ العِلم مِنْ أجلِ تَجميل غبائه، وأعتقدُ أنَّني لستُ مدركًا إلى هذهِ اللَّحظة إلى أينَ أنا ذاهب، لأنَّني وبكلِّ بساطةٍ ليسَ لديَّ هدفٌ سوى الانشغال بالوقتِ لأبقى على قيدِ الحياة، لم أكُنْ مدركًا لكلِّ الكتبِ التي كتبتُها، وما جالَ في كنفِها كانَ لجذبِ الانتباه، مِنْ باب (تعوا شوفوني!)

إنَّها درجةٌ طيِّبةٌ منَ التَّصالحِ وفتحِ باب الشَّفافيَّة مع الذَّات، لأنَّ لا شيءَ يَدعو للتَّخفي بالكذب، والتَّزينِ بالأدب، ليكونَ لي شأنٌ عندَ فلان وفلان، أعتقدُ أنَّنا في عصرِ التَّسابقِ إلى نهايةِ مَنْ يَنهارُ أوَّلًا، لأنَّ ملمسَ الأحلامِ النَّاعم مصطدمٌ بواقع خشن، وتأذَّتْ النُّفوسُ بطريقةٍ بشعة، جميعُ النَّاسِ واقعونَ بين المضيِّ قُدمًا أو البقاء في المكانِ والزَّمانِ الذي لا بدَّ أنْ يَنهاروا به، يُريدونَ أنْ يَنهاروا بعزَّة نفس، هو انهيارٌ لا فائدة منه، ويَتبارزونَ ليستمرُّوا حتَّى لو كانَ ذلكَ على حسابِ هلاك أرواحهم ومشاعرهم،

وحتَّى لو كلَّفَ ذلك أنْ تُؤذي مَنْ حولك،

وتُدميهم، وتَدهسَ أفكارَهم ومعتقداتِهم وإيمانَهم المُزيَّف، إنَّ البشريَّةَ في كارثةٍ وجوديَّةٍ ومصيريَّةٍ بائِسة ومُتهالكة، بينَ الماضي وبطولاتِه الغبيَّة، والحاضرِ

وتَراكُضِه تكنولوجيًّا إلى مَنْ يَخترع برامجَ أكثر، ليُسيطرَ على العقولِ المُقفلة أكثر، العالمُ مُنفتحٌ على صفحةٍ شفَّافة، امتلأَتْ شفافيَّةً ووضوحا، وبالنِّسبةِ

لهم يُنافي الوضوحُ ما تَلقَّوهُ وتَعلَّموهُ مِنْ أسلافِهم، وجميعهم يَذوبونَ ويَستمرُّونَ نحوَ الواقعِ واللَّاشيء، بلا جَدوى تَنهارُ كلُّ عملياتِ تَرقيع التَّاريخ، وواقعهم المُدمِّر،

وعقولهم المُشبعة بالأوهام، يُريدونَ امتلاكَ العلم، ليبنوا فوقَه وَهْما، إنَّها أساساتٌ خِصبةٌ تَعِبوا فيها، قُدِّمتْ هديَّة لعالمٍ مملوء بالانفصاماتِ الشَّخصيَّة، والعُقدِ العقليَّةِ والنَّفسيَّة، حاسوبٌ وهاتفٌ وجوَّالٌ بنغماتٍ ولمساتٍ وكمراتٍ وبصماتٍ وأسرارٍ مُعلنة لجميع النَّاس، وليسَ هناكَ خصوصيَّةٌ لأحد، إنَّهم يُريدونَ أن يَنقلوا رائحةَ الحدثِ إلى المُتلقِّي بطريقةِ الصَّوت والصُّورة، وأن يَكبتوا الحميَّةَ الجاهليَّة والإيمانيَّة بطريقةٍ افتراضيَّة، ليَضيعَ الألمُ بينَ الأحزنَني والأسعدَني، وبينَ شامتٍ وشاتمٍ، وبينَ سعيدٍ وحزين، ستجدُ في نهايةِ المنشورِ كلَّ الوجهات، لتقعَ وتُحاولَ أنْ تَبتعدَ وتَنتحرَ وتَموتَ شنقًا بكابلِ لشحنِ هاتفكَ المحمول،

ويَلتقطونَ لكَ صورةً رمزيَّةً انتحاريَّة، ليعلمَ مَنْ يَعرِفُك أنَّكَ رحلت. إنَّ الطَّاقةَ السَّريعةَ جعلَتْ منَ العالمِ طوابق وهميَّة، تُغريها المنشوراتُ والصُّورُ والفيديوهات، قد أفقدَتْ الهيبةَ للطَّبيعة، ودفعتِ العالمَ للهلاك، ورَفعتْ سقفَ الأمنيات والتَّحليق بها عبر قواربَ مطَّاطيَّة قادمة مِنْ بلدانِ الهلاك إلى أرضِ الجنَّة، ومع ذلكَ كلِّه لم يَفقدِ الهاربُ جنَّتهُ المحفورة في دماغهِ كما تَلقَّاها مِنْ قومِه. نادرونَ جدًّا مَنْ تَركوا كلَّ الإيمانِ الوهميّ، مِنْ أجلِ الحصول على مساحةٍ حرَّة ليُرتِّبوا مستودعاتِ عقولِهم مِنَ البداية.

الحقيقةُ مُرَّة، الطَّبيعةُ قاسية، الواقعُ مُظلم، الرَّحمةُ تأتي عندما يَكونُ في الدِّماغِ تناغمٌ وهميٌّ مع كلِّ ما يَراه بعينهِ المجرَّدة مِنْ فلاترَ وإضافاتٍ تَقتلُ طعمَ

ولونَ ورائحةَ ما نَلمسُه ونَشعرُ بوجودهِ قولًا وفعلا، لدينا طاقاتٌ جبَّارة لاستنزافِ الطَّبيعةِ مِنْ أجلِ صورةٍ واحدة، إنَّهم يَقتلعونَ أشجارَ الغابات، ليُشعلوا أكبرَ حريقٍ في العالم، إنَّهم يَقتلونَ الحيوانات، ويَسلخونَ جلدَها عن عضمِها ليصنعوا أكبرَ منسفٍ في العالم، إنَّهم يَنتفونَ ريشَ الطُّيور، ويَقصُّونَ شعرَ الغزلان،

ويَسحبونَ جلودَ الزَّواحف، يُصدِّرونها لصناعةِ أجمل الجاكيتات،

والتَّنورات، والقمصان، والقبَّعات، وكفوفِ اليدين، إنَّهم يُخصِّبونَ اليورانيوم ليَشنُّوا أكبرَ حرب، ويُدمِّروا أكبرَ مدينة، ليَسحقوا أكبرَ مجموعةٍ بشريَّة، وليُشغِّلوا السُّفنَ العظيمةَ التي تَجري في المحيطاتِ تُخلِّفُ في الماءِ السمّ، وتَقتلُ الثَّروةَ البحريَّة، إنَّهم يَحفرونَ آبارَ النِّفط لقتلِ الأوكسيجين، وإشعالِ أكبر تلوُّثٍ بيئيّ،

وسحق آليَّة الهواء، وخرق طبقة الأوزون وإذابة الجليدِ مِنَ الأماكنِ الطَّبيعيَّة، إنَّهم يَتراكضونَ لأوهامِ القمّةِ الافتراضيَّة،

ليَكسبوا ودَّ ملايين الحمقى الأنانيّين، الذين لا يُفكِّرونَ بغدٍ سوى بَترديدِ الشِّعارات المكتسبة، التي لا تَردُّ هذا الانهيارَ العالمي، إنَّنا نَتدافعُ نحو الهاويةِ تَدافعًا بلا أيّ تَفكيرٍ لما سيَجري بالبشرِ الذين أنجبوهُم لمستقبلٍ ضبابيّ، لا علْمَ لهم به، إنَّهُ تفكيرٌ أنانيٌّ مُتوارَث، ولكن في كلِّ مُدَّةٍ يُستعمَلُ العلمُ وسيلةً لتسويقِ الأنانيَّة، واقتسام الجهلِ والغباء، بأسلوبٍ تَلميعيٍّ لتغطيةِ الدَّمويَّة، وقتلِ الحقيقة بطريقةٍ أو بأخرى!

أنتَ فردٌ تَملكُ أفكارًا تُلامسُ الصَّحوَ
والوعي، وتَخطو بها خطوةً إنسانيَّةً نحوَ برِّ الأمان، لا مكانَ لكَ في المرحلةِ الرَّاهنة، كلُّ ما عليكَ فِعله أنْ تَطرحَ الأفكار، وسوفَ تُسرَقُ وتُسوَّقُ بأقلّ جزءٍ مِن الثَّانية!
ما فائدةُ ولادة الفكرة وصاحبها ليسَ موجودا؟ إنَّنا لم نُفكِّر يومًا أنَّنا نحنُ الآنَ بما فينا، ويَكفينا مِنْ هبل وجنون
أينَ سنكونُ بعد مئتيّ عام؟

هذا سؤالٌ يَلفتُ بِسخريةٍ المُتلقِّي،
ويَتهرَّبُ منهُ جميعُ النَّاس، لأنَّ الأحمقَ الذي زَرعَ في دماغِهم أنَّهم خالدونَ مُخلَّدونَ استطاعَ أنْ يُبرمجَهم طائفيًّا أو قوميًّا أو عاطفيّا، لقد حقَّقَ أرباحًا لا تُفيدُ في معادلةِ اللَّاشيء، وجعلَ مِنَ العالمِ حلْبةَ مُصارعة، ليُداسَ بها الأبرياء، الذين لا يَعرفونَ الوعيَ سوى بخروجِ السَّائلِ المنويّ مِنْ أجسادِهم، أو عندما يَصلُ سنُّهم إلى حدّ ما...

أسماؤهم محفورةٌ في أدمغةِ النَّاس، يَتصارعُ العالمُ مِنْ أجلِ شخصيَّاتٍ ليستْ موجودة، وأفكارٍ ليسَ لها نفعٌ علميٌّ سوى أنَّها عقاقيرُ مُهدِّئة ووهميَّة، لا قيمة لها في ميزانِ العقل، العالمُ يُستنزَفُ بالثَّأرِ للماضي، وهناكَ دعاةٌ لتسويقِ الفضيلة والرَّذيلة، فمَن الذي يُحدِّدُ الفضيلةَ
والرَّذيلة؟ وكيفَ بُنيتْ في أدمغةِ النَّاس؟

البرمجةُ التَّكوينيَّة، وكيفَ استطاعَ بعضُ النَّاسِ إقناع بعضهم الآخر!
وتَلقين عقولهم بالأفكار، والاستعداد لمواجهةِ الظَّرف الحالي، بأسلوبٍ رديءٍ مُنافقٍ مُرقَّعٍ بالتَّقوى، وفنون إظهار أنَّكَ تُواجهُ شقيقًا لك، وفي دماغِكَ تَجدُه أكبرَ مُتربّصٍ بك، كلُّ هذا السِّيناريو لتَأمنَ شرَّه، وهو يَفعلُ معكَ ذاتَ المشهد، ليأمَنَ شرَّك، وهكذا (كلُّو خايف مِن كلُّو) وعم يوكل خرا بتركيبِ قناع الأنسنة (وتعوا شوفونا كم نحن إنسانيُّونَ ونُحبُّ بعضنا) لك روح يا شيخ، والله عايف طيزي من الأفلمة، والعواطف الخُلَّبية!

في بدايةِ كلّ أسبوعٍ أركبُ (الشتراسن بان) متوجّهًا لإجراءِ فحوصاتٍ عامَّة لصحَّتي، فأرى الوجوهَ المكبوته بسببِ طريقةِ حياتهم المُقسَّمة إلى مَشاهدَ لا تُطاق، إنَّ مَراكزَ العلاجِ النَّفسيّ تَعملُ ليلًا نهارًا لتكبحَ مدَّ التَّطرُّف، والهَيَجان،
والاضطراباتِ الدَّاخلية، وتَمنعُ بيعَ المُنتجاتِ المُهدّئة بكافَّة أنواعها، فهي تُعطي تَناغمًا بشريًّا، وتلاحمًا كاذبًا لا فائدة منه، كانتِ الوجوهُ مُكفهرَّةً مِن الرُّعب، كانوا يَعملونَ ليلًا ونهارا، يَضعونَ كلَّ جهدِهم في العمل، ويَهلكونَ على مدار الأسبوع، ويَهدرونَ أعمارَهم لبناءِ الوطن مِنْ غيرِ أنْ يَعرفوا ما معنى وطن؟
وفي نهايةِ الأسبوع، وخوفًا منَ الوحدةِ
والالتقاءِ بالذَّات، وفتح نافذة الشَّفافية بين واقعِهم ورغَبَاتِهم، يَهربونَ إلى الملاهي اللَّيلية، والجنسيَّة، ويَشربونَ الخمورَ والمُخدِّرات، ويُحاولونَ استغلالَ كل دقيقةٍ وهُم فاقدونَ لعقولهم،

لا يَتحدَّثونَ عن العمل، ولا يَتحدَّثونَ عن الحقيقة، لأنَّهم في وسطِ موجة الحقيقة، كلُّ ما في الأمرِ أنْ تعالوا نَفقد عقولَنا لثمانيةٍ وأربعينَ ساعة قبلَ أنْ نعودَ إلى عالمِنا الحقيقيّ، كلُّ شيءٍ مباحٌ هنا، ومُقنَّنٌ وتحتَ سرابٍ وغطاء، وليسَ كلّ ما تُشاهدُه ذَهَبا، ولو حَكَكْتَه جيّدًا لعرفتُ أنَّه خُراء وضُراط، العنفُ في اللَّاشيء، والغوصُ في مَنهلِ الغرق وعدمِه، شعوبٌ فارغةٌ مِن الدَّاخل، لا شيءَ فيها سوى أنْ تُراقبَ الوقت، مكناتٌ بشريَّةٌ تَعملُ بعنفٍ لأربعةٍ وعشرينَ ساعة، مِنْ أجلِ تجميل المستقبل، وعدم تَحمُّل مسؤوليَّة الأنانيَّة التي تَصدرُ مِنْ بعضِ النَّاس، لا يُوجدُ وَهْم، إنَّهم لا يُؤمنونَ بوجودِه، ولكن يُقدّسونَ ثقافةَ آبائِهم، الذين استعانوا في آخرِ حياتِهم بالوَهْم، خوفًا مِن الارتطامِ موتًا مِنْ غيرِ صدى، ليس لموتِهم قيمة هنا، لأنَّهم يُخفونَ جُثثَهم وتاريخَهم بالحرق، لا وجود للقبورِ هنا سوى مُخلَّفات مَنْ كانوا يَظنُّونَ أنَّهم سيعودونَ إلى الحياةِ يومًا ما.

لهذا السَّببِ مَنْ يَحفظونَ ثقافةَ الوهمِ لديهم ثقافة الاستملاك، إنَّهُ استملاكٌ وجوديٌّ مِنْ لحظةِ الولادة:

(اسم، تاريخ، مكان، زمان)

استملاكٌ في مرحلةِ الطُّفولة:

(الأكل والخراء) لأربعةٍ وعشرينَ ساعة دونَ كللٍ ولا ملل، كأنَّهُ يُريدُ أنْ يَأكلَ العالمَ كلّه ويَتغوَّطَه!

استملاكٌ في الفُتوَّة:

(مدرسة، حقيبة، ملابسُ برَّاقة، كتبٌ نوعها ثقيل، واستنزافٌ لجيبِ الأهلِ بكلِّ وسائلِ الضَّغط)

استملاكٌ في المراهقة:

(اكتشافُ الجنس، تجربةٍ جنسيَّة، ضياعٌ بينَ الطفولةِ والفتوَّة، تَبذيرٌ في المنفخةِ وبناءِ الشَّخصيَّة)

استملاكٌ في البلوغ:

(اصطيادُ الفريسة، مضاجعتها، محاولاتٌ انفصاليَّة عمَّن يَظنونَ أنَّه ملكهم، بناءُ أوَّل طريقٍ له إمَّا عمليًّا وإمَّا علميا، عدمُ تنازلٍ عمَّا يُسيّلُ لعابَه مِنْ مفاتن)

استملاكٌ في الشَّباب:

(التَّخرُّج، البحثُ عن عملٍ أو منصبٍ أو مركزٍ أو نافذةٍ ماليَّة، التَّركيزُ على فريسةٍ واحدةٍ لأنَّ سنَّةَ الحياةِ في الكون أنْ تَجدَ نِصفَك الآخر)

استملاكٌ في دخولِ مُعترك الحياة:

(جمعُ أكبر مبلغٍ مِنَ المال، احتواءُ أكبر عددٍ منَ المُستهلكين والمشجّعين والمجانيين، اقتناصُ الفرصةِ الذَّهبيَّة لاستغلالِ الآخرينَ واستنزاف ما لديهم ليُقوّي ما لديه، جشعٌ، طمعٌ، إهاناتٌ،
وتطفُّل، تَصارع)

استملاكُ ما بعد الأربعين:

(الانفصالُ عن العالم، البحثُ عن زاويةٍ أنانيَّةٍ بعيدة عن النَّاس ليتمتَّعَ بما جمعَهُ مِنْ مكانةٍ وثروةٍ وبناءٍ صامتٍ خوفًا منَ الحسدِ والعينِ وقلَّةِ الفهم)

استملاكُ بعد الخمسين:

(الإيمانُ وتَقويةُ الوهمِ لتشجيعِ النَّاس على السَّيرِ خلفَ جنازتِه، ولتقديسِ سيرته)

استملاكُ الوصيَّة:

(تقسيمُ التَّرِكة، وأينَ يَكونُ جثمانه؟
وأخذُ مساحةٍ مُعيَّنة مِنْ مكان للأحياءِ الذين لا مكان لديهم، استملاكٌ مِنْ أجلِ لا شيء)

الاستملاكُ يَفقدُ رونقَهُ عندما يَعمُّ الوعي، ليسَ للوعيِ علاقةٌ بالبلوغ، ولا بالسِّن، ولا بشخصيَّة الفرد، إنَّهُ حالةٌ انفراديَّةٌ ربَّما تُكتسَبُ اكتسابًا علميًّا، وربَّما التَّجربةُ مَنْ تَصنعُ الوعي، وتَجعلُ العقلَ يَستيقظ.
كلُّ ما ذكرتُه آنفًا (لا شيء) إنَّهُ غُبارٌ بلا فائدةٍ في عالمِ العولمة، وفي عالمِ التَّطوُّرِ الاستملاكيّ في كلِّ شيء،
حتَّى الحب عندما يُصبحُ استملاكًا لا يَبقى حبًّا، بل يُصبحُ شراءً وبيعا، نزعةُ الأَنا الكبيرة، والسِّيادة، وأنَّ حبيبي يَعني عبدي، وأنْ نَخرقَ خصوصيَّاتِ الآخرينَ بحجَّةِ المحبَّة، ومِنْ باب (أنا عارف بمصلحتك)

مَنْ أنت؟

لا شيء.

17

(هناكَ لحظةٌ مصيريَّةٌ حاسمة، سنمرُّ بها جميعُنا لا مَحالة، في هذهِ اللَّحظةِ بالتَّحديدِ لنْ نَستطيعَ أنْ نسألَ ذاكَ السُّؤال الذي أمضينا حياتَنا نَتهرَّبُ منه وهو:
طيلة الوقتِ المهدورِ مِنْ أعمارِنا لماذا لم نَكن سُعداء؟)

مِنْ أجلِ مَنْ كل هذهِ التَّعاسة؟ ولماذا كلُّ هذا الشَّقاء الدَّاخلي؟
ربَّما كانَ الأمرُ قلَّةَ رضى، أو قلَّة ثقة، أو كتمانًا فارغًا لا يُساوي قشرةَ بصلة!
هل هذهِ المعاناةُ تَأتي مِنْ جانبٍ نفسيٍّ داخليٍّ مُنفصلٍ عن العالمِ الخارجي؟ أم تكونُ ألمًا مُكتسبًا مِنَ المُحيطِ الخارجيّ؟

عرفتُها مُذ كانتْ تَنبشُ القمامةَ في الدُّكانِ المجاورِ لبيتِ العائلة، تَحملُ معها كيسَ خيشٍ فيهِ بقايا ما يُتلفُهُ النَّاسُ ولم يَعدْ صالحًا للاستعمال، كانتْ تَفصلُ كلَّ شيءٍ على حِدَه، وتَبيعُه مِنْ أجلِ لقمة الخبز، لقد أخَذَ هذا الدَّور في عالمِ المسلسلاتِ (سمعان وأبو نجيب) إنَّها شخصياتٌ لم تُحشَر في مَشاهدِ الدراما والكوميديا عن عبث، لكنَّ العبثَ أنْ نَكتبَ عن عناصرَ لا يُمكنُ أنْ نَلمسَها سوى في عالمِ الأدبِ المُحزن المُنفصِل عن الواقع، كانتْ تَملكُ ذاكَ الدَّورَ الواقعيّ، وتَعلَمُ معنى أنْ تَكونَ حريصًا في قلبِ مدينةٍ تَتغنَّى بإكرامِ الضَّيف، وردِّ الظُّلم، وإعانةِ المحتاج، وبيعِ الكلام في سوقِ الكذب لردِّ العيوبِ في مدينةِ المئة عيب.

لا تَملكُ الوقتَ لتسمعَ كلامَ النَّاسِ الفارغِ عن حالتِها التي يُرثى لها، قالوا لها: إنَّ اللهَ معَها، وهو يتكفَّلُ بإطعامِ الدُّودِ تحتَ الأرض، كانتْ مَشغولةً بتحصيلِ لقمةِ الخُبزِ مِنْ نُفاياتِ النَّاس، وكانوا يُلقِّبونَها بعددٍ مِنَ الألقاب: (زبَّالة، نَوَريَّة، شحَّادة، ريفيَّة، مجنونة، مهبولة...) كانَ موعدُ مَجيئِها إلى الحيِّ قبل أنْ يَخرجَ النَّاسُ إلى أعمالِهم، وتَزامنًا مع استيقاظِ أمِّي في الخامسةِ فَجرا، كنتُ أهمُّ لدخولِ التواليت، فأرى أمِّي جالسةً في مَدخلِ المَبنى، قد أعدَّتْ الفطورَ البسيط، ونَزلتْ لتفطرَ معها، كانتا مُنسجمتينِ تمامًا بالكلام، ومِنْ غيرِ تَصنُّع، والفطورُ كأسُ شاي، وحبَّة زيتونٍ أخضرَ وأسود، مكدوس، لبنة، زيتُ الزَّيتون والزَّعتر،

وبيضٌ مقليّ...

ياه يا يُمة!

كم كَبُرتْ بعيني تلكَ المرأةَ التي أعظِّمُها في ذاكرتي وكتُبي أكثر مِنْ نفسي، لم تَكن المرأةُ التي تُجالسُها أمِّي في أغلبِ صباحاتِها مجنونة، بل كانتْ كادحة، تَعملُ بهمَّةٍ ونَشاطٍ بلا أيِّ قِناع. عشتُ في مدينةِ المَنفخة، والكذب، والرّياء،

والمكاناتِ العشائريَّة، والوجاهات،

والمحسوبيَّات، في بلدِ التَّقنُّعِ بالدِّينِ المُستهلَك، الذي يَرتديهِ النَّاسُ مِنْ أجلِ مصالحهم الشَّخصيَّة، ويَتلقَّونَه في الصَّفِّ الأوَّلِ في المساجدِ العامرة بروائح التواليتات الكريهة، وبأفواهِ الرِّجال الآكلينَ لحقوقِ المرأة، والمتخاصمينَ مِنْ أجلِ الميراث...

دمٌ منتشرٌ في الأرضِ نكشَهُ أحدُهم ذاتَ ثورةٍ على إحدى المدارسِ الابتدائيَّة، فثارَ بعضُ النَّاسِ ليأكلوا بعضا، بحجَّةِ أنَّ النِّظامَ النَّازيَّ السُّوريّ ظلمهم، والمُضحكُ المُبكي أنَّهم يُرِدّدونَ على منابرِ التَّمثيلِ والتَّصنُّعِ تلكَ القطعة الفنيَّة التي لا يَملُّونَ مِن تكرارِها (كما تدين تُدان) وبعد عشرةِ أعوامٍ مِنَ الدَّم الذي لم يَجفْ يَسألونَ أنفسَهم لماذا اللهُ لم يَنصرهم؟

ما زالت أرضُ الظُّلمِ مُلوَّنةً بالدَّمِ الأحمر،
وجنودٌ قادمونَ منْ سلالةِ الدِّببة الرُّوسيَّة، والأفاعي الفارسيَّة ليسحقوا كلَّ شيءٍ يَدلُّ عليهم، إلَّا أنَّهم مُتمسِّكون بصوتِ ضُراطِ الإمام وهو يُحرِّضُهم ليُواجهوا الوهمَ بالوهم، لا يَثقونَ بأنفسِهم، ولا بترابِهم، ولا بما يفعلونَه في الوقتِ الرَّاهن، مِنْ تَبنِّي الأفكار غير الواقعيَّة ولا المنطقيَّة، إنَّهم مُتمسِّكونَ بالحريَّةِ كواجهةٍ مُرضية للعالمِ أجمع بأنَّهم دعاةُ سلام، وفي نفوسِهم يُريدونَ زعزعةَ الاستقرارِ السِّلميّ بينهم وبينَ الطَّوائفِ الأخرى، بشعارِهم الذي يُرِدّدونَه (بصنعِ دولةٍ أصوليَّة باسمِ الدِّين، انتقامًا لأنفسِهم لا للدِّين) حَمقى يُقاتلونَ حَمقى، وفوضى واضحة بعضُها يَثأرُ لبعض، ونُسوا قضيَّةَ ظلمٍ ألمَّ بالنَّاسِ جميعهم، يهتفون:
(هيَّا لله، هيَّا لله!) والعالمُ بأسره يُفكِّرُ بشعاراتِهم التي تَتنافى مع مفهومِ الحريَّة والدِّيمقراطيَّة، وفي كلِّ يومٍ تَسألُهم الأممُ المتَّحدة ذات السُّؤال:
ماذا تُريدون بالتَّحديد؟

ليكونَ الجوابُ مُجرَّد آراءٍ فرديَّة، لا قيمةَ لها على طاولةِ الحوار، ومِنَ المُتناقضاتِ المُبكية والمُضحكة في الوقتِ ذاته، يَقولونَ للعالمِ أجمع: (إنَّ اللهَ معهم) ولا يُريدونَ العونَ مِنْ أحد،

وعندما يهطلُ المطر، أو تَحلُّ كارثةٌ بشريَّة في ديارِهم، يَصيحونَ أمامَ الكاميراتِ المُتطفِّلة على بؤسِهم: (لك وين العالم يا بشر؟ يا هو! يا عالم شوفونا!) إذن أينَ الله؟

إنَّهُ غارقٌ في سبات، ذاكَ الطِّفلُ الذي لا يعرفُ لماذا هو هنا! ابتلَّ فراشُهُ بالبول، لا حفَّاضة تَمتصُّ بولَه، والقدور تَحملُها حجارةٌ جاءتْ مِنْ سجِّيل، لتجعلَهم كعصفٍ مأكول، مَنْ لها تلكَ الطِّفلة، التي لم يَبلغْ سنُّها خمسةَ أعوام؟ مَنِ الذي ارتكبَ عقوبةَ وجودِها في أزمةِ اللَّيرة السُّورية، وأزمةِ رغيف الخبز، الذي راحت كثيرٌ مِنَ التَّجمعاتِ الموهومة تَستدرجُ الأبرياءَ لتقتلَهم وتبيعَ أعضاءَهم للدُّولِ المصدِّرةِ للضَّميرِ الإنساني؟ لا خبزَ لدينا،

ولا ماء ولا دواء، لا ربَّ معنا ولا إنس

ولا جان، لا رأي ولا رؤيا ولا ماض ولا مُستقبل، نُقدِّمهُ في ذروةِ الجوعِ التي تَفتكُ بالنَّاس، كيفَ سوَّلتْ لهم أنفسهم أنْ يُمارسوا الجنسَ بين الجُثثِ المتفحِّمةِ

والمَبتورةِ والمتمزِّقةِ والمختنقةِ بالغازاتِ الكيماويَّة؟ أيُّ نفسٍ دنيئةٍ تلكَ التي يَتضاجعُ النَّاسُ فيها وهُمْ في ثلَّاجةِ الموتى، الذين فقدوا حرفيًّا شيئًا يُدعى: حياة؟

لا حياءَ لمن تُنادي، لا بدَّ لهذا الجحيم أنْ يَحدثَ لأجدَ سببًا أتأفَّفُ مِنْ أجله! كلُّ المَشاهدِ التي حدثَت، والتي تَحدث،
والتي سوفَ تَحدثُ تُكوِّن سببًا لأُظهرَ مشاعري المدفونة، ربَّما تُوافقُني، أو تَنفيني بسببِ رؤيتي لها من زاويةٍ فلسفيَّة، إنَّها آلامُ حقيقةٍ مَطويَّة في حقائب سياسيَّة اقترنتْ بالمادَّة، وارتبطتْ بالسُّؤالِ المطروح لروَّادِ القرار:
(إذا خُضنا حربًا مِنْ أجلِ حريَّةِ شعبٍ ما ماذا سنَجني؟) لن تَقومَ حربٌ عالميَّة مِن أجلِ ألف طفلٍ ماتوا بالغوطةِ بسببِ غاز السَّارين! ولا مِنْ أجلِ إبادة درعا
وحمص وحماة! ولا مِنْ أجلِ الخيَم المترامية الأطراف في إدلب، ولا بالصِّراعِ القوميِّ العِرقيِّ في مناطقِ النِّزاعِ الكرديَّة! ولا مِنْ أجلِ أحد!

النُّباحُ المتكرّر لن يَجلبَ لأيِّ طرفِ رغيفَ خبز، اللُّهاثُ خلفَ سرابِ القوميَّة، والدِّين المُنسلخ عن القيمِ الإنسانيَّة، وتقبُّل الآخر، لن يُرجعَ أرضا، ولن يَحمي عرضا، العِرضُ العالميُّ حمايةُ جميع النَّاس، الخالي منَ الوعيد، ومنْ تقديمِ وعودٍ زائفة، ذات أيديولجيَّة أصوليَّة مُتطرّفة، هذه الأفكارُ لن تُقنعَ العالم، وأنتم تَصرخونَ بتحريرِ فلسطين، وتُنادون المنظَّماتِ الحقوقيَّة والإنسانيَّة لتوفِّرَ دواءً مِنْ مُسكِّناتِ الآلام، وتُوفِّرَ خيمةً وحليبَ بودرة، نصف مواردِها مِنْ إسرائيل، العالمُ إلى هذهِ اللَّحظة لا يَعرفُ ماذا تُريدُ أنتَ بالضَّبط!

أريدُ أنْ تَعودَ اللَّحظةُ التي راقبتُ بها أمِّي وهي تُجالس تلكَ المرأة، قبل خروجِها إلى عملِها في معملِ الأحذية، أنا اليوم في المهجرِ أسمعُ ذاتَ الكلمة

التي أطلقَها أبناءُ الدِّيارِ على تلكَ المرأة (الشحَّادة) هناكَ مَنْ وصفَني بهذا الوصفِ في أرضِ المهجرِ مِنْ سُلالة العربِ والعروبة، قال لي: (يعني أنتَ نوَريٌّ مِنْ حوران، شو بدو يطلع منك) أغلب ظنِّي سمعتُها قبلَ عامينِ في النِّمسا مِنْ شخصٍ دمشقيّ، سُقتُ هذه الجملة لكم وأنا لستُ مُتأثِّرا بها، لكنَّني تَذكرتُها صُدفة، واستخدمتُها مثالًا مِنْ باب (لم نَتغيَّر)

قالت لي إحدى القريبات:

(أنت متغير كثير يا زهير!)

طبعًا أنا تغيَّرت، وقابل لأنْ أتغيَّرَ أكثر، لأنَّني أرى التَّغيُّرَ إيجابيًّا، وفيهِ رحابة صدر، وسِعة كبيرة لاحتواءِ الآخرينَ إلَّا أنتم!

الصَّدمةُ جَعلَتْ منِّي شخصًا آخر، كانَ دماغي مستودعًا مأهولًا بالنُّفايات العقدية والفكريَّة، جرحتْني فعليًّا، وأحاولُ كلَّ الوقتِ أنْ أضمِّدَ هذه الجراح، بطريقةٍ أو بأخرى، ولكنَّ الجُرحَ عميقٌ جدًّا، كانتْ تجربة وأفتخرُ بها، وليسَ لديَّ نيَّة لإخفاءِ الماضي مهما كانَ حجمه أو وزنه، أوقِنُ بأنَّ التَّجربةَ جعَلَتْ منِّي شخصًا آخر، واجهتُ غيرَها بما حملته مِنْ أفكار، عشتُ في مرحلةِ تأهيلٍ نفسيٍّ بيني وبينَ نفسي لمدَّةِ عامين، كانتِ الخسائرُ كبيرة، والتَّعاسةُ ملازمةً لي تماما، فتَّشتُ كتلكَ المرأة عن معنى الحياة بطريقةٍ فلسفيَّة، وأكرّرُ مرَّة أخرى، كنتُ كلَّ يومٍ أصطدمُ بفكرة، وأنَّ كلَّ الذي تلقَّيناه كانَ نفايات، بلا قيمةٍ ماديَّة سوى بالتَّسويقِ المستمرّ للوَهْم، (يا لغبائنا المتوارث!) أينَ كانت أدمغتنا بحقّ كلّ هذا الوقتِ الذي راحَ سُدى، كنَّا مَكناتٍ تتلقَّى الأوامرَ فقط، وتَحفظُها وتُردِّدها مِنْ دونِ أنْ يكونَ لدينا مِساحة حواريَّة، وإلى الآن أشاهدُ ذاكَ الهوسَ في الغرب، نعم لقد هاجرنا إلى الغربِ، وهناكَ أدمغةٌ ما

زالت فاسدة، تَحتاجُ إلى تأهيلٍ لتَحترمَ الآخر على الأقل، ومِن دونِ أنْ تُزاودَ على جراحِ الآخرين!

نعم أنا تغيَّرت، أعرفُ كيفَ أكونُ سعيدًا في الوقتِ الذي أرغبُ أنْ أكونَ سعيدًا به، وأعرفُ كيفَ أنهارُ في الوقتِ الذي أريدُ أن أنهارَ به، إنَّها الطَّبيعةُ التي نتردَّدُ بالغوصِ بها خوفًا مِنَ الوَهْم، أستطيعُ أنْ أخوضَ أيَّ نقاش، ولكن لا يوجدُ وقت، لأنَّني سوفَ أصلُ إلى مرحلةٍ أقولُ فيها:

(لماذا لم أكُن سعيدًا كل الوقت؟)

مواجهةٌ يَتهرَّبُ منها جميعُ النَّاس، الطَّبيعةُ تَغدرُ بالإنسان، ولا تَترك له مجالًا ليسألَ نفسَه، أوليرتِّبَ أمورَه قبل عمليَّةِ الغدر. سكتةٌ قلبيَّةٌ أو دماغيَّةٌ أو فايروسٌ أو مرضٌ أو حادثُ سيرٍ أو زلزالٌ مفاجِئٌ أو انهيارٌ عصبيّ أو... أنتَ في مكانٍ منَ العالمِ لستَ بمأمنٍ منَ الرَّحيل، أنتَ ميّتٌ ولا فائدة مِنْ كلِّ هذهِ الفوضى التي يَستحيلُ أنْ تُرتِّبَها، إنَّ ترتيبَ اللَّحظةِ أفضلُ حلٍّ لتُكملَ حياتكَ مِنْ غير مُنغِّصات، ترتيب أنْ تكونَ حزينًا بطريقةٍ طبيعيَّةٍ هو أفضل أنواع العلاج لتخرجَ منَ الحزن، أنتَ بحاجةٍ للوقت، لتتفاعلَ مع كلِّ شيءٍ بطريقةٍ طبيعيَّة ومِنْ غير تَصنُّع، اعتنِ بصحَّتكَ أفضل من أنْ تَتصنَّع على مرأى الآخرين وتَدَّعي: (إنَّكَ بخيرٍ وقويّ) لماذا هذا السِّيناريو؟ ومِنْ أجلِ مَنْ كلّ المجهودِ المُتراكم على حسابِ صحَّتكَ النَّفسيَّة، بطِّلها حركة (تعوا شوفوني) لأنَّ التَّخلِّي نوعٌ فعَّالٌ للعلاج، هو ليسَ سرّا، إنَّه حقيقةٌ يَجبُ مُواجهتها، دون اللُّجوءِ إلى الوَهْم، منَ المُتناقضاتِ المُبكية، أنْ تَعيشَ وهْمًا

وتَموتَ وهْما، عندما عرفتُ النُّقطةَ الجذريَّةَ المصيريَّة تلك، تَركتُ كلَّ شيءٍ يُفقِدُ العقل، كانَ قرارًا حسَّاسًا، أنْ أتوقَّفَ عن كلِّ مادَّة مُخدِّرة إلى جسدي، يَجبُ أنْ أتألَّمَ وأحزنَ وأنهارَ مِنْ غيرِ تَقنُّع، ودونَ أنْ أزاولَ مهنةَ التَّمثيلِ على حسابِ صحَّتي، التَّخلِّي عن مواساةِ الآخرين،
والتَّخلِّي عن التَّذمُّرِ قبل فواتِ الأوان، التَّخلِّي أنْ تقتنعَ تمامًا باللَّحظة، وبما تَصنعُ في تلكَ اللَّحظة.

(فقط أريدُ أنْ أعيشَ لحظةَ سعادة أمي،
وهي تَتناولُ الطَّعامَ مع تلكَ المرأة)

قد نكونُ نَوَرًا، لكن هذا لا يَعني أنَّنا بلا مشاعر.

18

- إذا انتهتِ الحربُ في المستقبلِ هل ستعودُ إلى سوريَّة؟

- لا!

بالمختصرِ لن تَنتهي الحربُ في سوريَّة، حتَّى لو حدثتْ حربٌ عالميَّة ثالثة، والأسباب واهية، مِنْ بينِها:
الانتهاءُ مِنْ نظامٍ مجرمٍ كي يَنعمَ السُّوريُّونَ بنعيمِ مستقبلٍ ديمقراطيّ ليس وهميًّا!
- هل سألتَ السُّوريينَ عن مفهومِ الحريَّة قبل أنْ يُطالبوا بالحريَّة؟

- ليسَ هناكَ جوابٌ واقعيٌّ واضح إلى هذهِ اللَّحظة، وليسَ هناكَ بديلٌ مُسالمٌ ومحايدٌ لضبطِ البلادِ في المدَّةِ الانتقاليَّة، هناكَ زعاقٌ عاطفيٌّ فقط، وبسببِ خبرة الدُّولِ الكبرى سياسيًّا، تَمتنعُ كلُّ الدُّولِ عن القيامِ بأيّ خطوة، لأنَّ الأمورَ ضبابيَّة، مهمَّتي في هذا نقلُ الرُّؤى الخارجيَّة لمصير سوريَّة، لأنَّها مكانٌ استراتيجيٌّ بَحت في المنطقة، وعلى كافَّةِ الأصعدة، أهمُّها: الأمن، ونقطةُ التقاءِ القارَّات، والجبهةُ الأمنيَّة الشَّماليَّة لإسرائيل...
منَ الغباءِ تهميشُ مركز إسرائيل الاستراتيجيّ في المنطقة، بسببِ الشِّعارات العربيَّة المُزيَّفة التي جلَبَتْ إلى المنطقةِ الأنظمةَ الدِّكتاتوريَّة النَّازيَّة، هذهِ ليستْ قصَّةَ ليلى والذِّئب، وليستْ مسرحًا فنيًّا أو مدينةً خياليَّة، هذه إسرائيل شئتَ أم أَبيت، وكنْ على يَقينٍ تام مهما شَتمْتَ أو لعنْتَ أو غَضِبتَ لا فائدة

لكلِّ هذا الضراط، لأنَّها إحدى القوى العظمى مِنْ كلِّ النَّواحي، بيديها زمامُ اقتصاد المنطقة، ومهما حاولتَ إنكارَها لن تستطيعَ تحريفَ القرآن الذي أثبتَ وجودَها قبل وجودِك!

في الكتبِ القادمة، عليكَ أنْ تَعرفَ نبرةَ الفكرة التي أفكِّرُ بها على هذا النَّحوِ الواقعيِّ الواضح، البعيد عن زُعاقِ القومجيَّة الدِّكتاتوريَّة، والشِّعارات المُكتَسَبة بلا فائدة، ودونَ معنى،
ولهذا السَّببِ سألَني الدُّكتور ڤولتر هذا اليوم:
- هل تُريدُ العودة إلى سوريَّة في المستقبل؟ ربَّما لديك أقارب؟ أو اشتقتَ لتلكَ البقعةِ لأنَّكَ نشأتَ بها؟

- ليسَ لديَّ أحد، كلُّ النِّقاطِ الجميلةِ التي تَربطُني بتلكَ المنطقة قد ماتتْ ولمْ تعدْ موجودة، ولو عدتُ إلى هناك سيعودُ الحزنُ لي، لأنَّ تلكَ النِّقاط الحسَّاسة تَبخَّرت، وحلَّ مكانها الألم، وهذا الذي لا أرجو عودته ولا أرغبُ بالذَّهابِ إليه، فلا غرابةَ مِنْ قراراتي المتأخِّرة، لا بدَّ منَ الاندماجِ في الواقعِ المحيط، ليسَ اندماجًا شكليًّا بل يَجبُ أنْ يكونَ اندماجًا تَحاوريّا، يُبنى على الشَّفافيَّةِ وإظهارِ ماذا نُريدُ بالضَّبط، حتَّى يَتجنَّبَ الآخرُ ما يُخيّبُ ظنَّنا بهِ في المستقبل، وحتَّى نَتجنَّبَ جرحَ مشاعره فيما بعد، لهذا السَّبب أريدُ مناقشةَ الماضي بطريقةٍ موضوعيَّة، وبحياديَّة تامَّة، كي لا نُكرِّرَ الخطأَ الذي ارتكبَهُ أهلُنا بحقِّنا، ولا أخفيكَ سرًّا إنَّ آباءَنا كانَت تجربتهم قاسية مع الأنظمةِ في سوريَّة، وكانوا دائمًا يُمارسونَ علينا الضَّغطَ العنيف البعيد عن النِّقاشِ و الحوار لسببين:

الأوَّل: نحنُ بالنِّسبةِ لهم ملكيَّة خاصَّة مدى الحياة، مِنْ غيرِ أنْ نعرفَ كيف؟ ولماذا؟

الثَّاني: لا يُريدون أنْ نخوضَ تجربتَهم مع الأنظمة، لأنَّها ستأخذُنا نحوَ الهلاك لا محالة، عندها أنتَ وحظك (النَّفي، القتل، الاختفاء القسريّ...)

كانوا وما زالوا إلى هذهِ اللَّحظة مجرمين،

وليسَ لديهم فكرةٌ تربويَّة مع الأجيال،

أمضوا كلَّ حياتِهم يُؤدُّونَ دورَ الأسرةِ السَّعيدة، وعندما حَدثتِ الحربُ هربَ الأغلبيَّة، وهربَ الأشخاصُ الذين لا حولَ لهم ولا قوَّة، كانت أكبرُ أمنيةٍ لديهم تذكرةً إلى أيِّ بلدٍ كان، ببساطةٍ لأنَّ الثِّقةَ مفقودةٌ تمامًا بقدراتِهم، هناكَ مَثَلٌ يقول:

(لو بدها تشتِّي كانت غيَّمت)

أكبرُ نكتةٍ عاشَها العربُ والمسلمون، ومِنَ المُضحك المبكي عندما تَحلُّ ثورةٌ في دولةٍ عربيَّة، ويُسحقُ نصفُ الشَّعب، وتَغرقُ الأرضُ بفورةِ الدَّم، ويَروحُ الصَّالحُ مع الطَّالح، تَسمعُ زعاقًا منْ تلكَ الأمكنةِ يُنادون: أين أنتم يا عرب!

يا ماما أنت ليش عم تصيح! لو تهدأ

وتشرب كأس ماء وتفهّمنا شو بدك!

وكما أخبرتُكَ سابقًا، ليست كلُّ الأقوالِ مبنيَّةً على الثِّقة! ولو أنَّ النَّاسَ وَثِقوا بثورتِهم ومطالبِهم لما هربوا إلى القارات، تَخيَّل المشهد بصورةٍ أوضح،

النَّاس يثقونَ بالبحرِ والبولم وكانوا مُستعدِّينَ أنْ يغرقوا في وسطِ الموج، تموتُ عشراتُ العائلات والشَّباب في الغابات، وعلى الحدودِ المجاورة منَ البردِ والجوعِ والضَّياع، لكنَّهم لا يُفكِّرون بالعودةِ إلى وطنهم (لا الآن ولا في المستقبل) ربَّما تَسمعُ ذاتَ الشِّعارات خارج الوطنِ فرديًّا أو جماعيّا، كتلكَ التي تَسمعُها داخل الوطنِ خوفًا مِنْ أنْ يُقالَ عنهم: بلا مبدأٍ ولا دين ولا شرف، ولو دقَّقتَ جيّدًا سوف تَعلَمُ بأنَّ المبادئَ والأديانَ والشَّرفَ الذي يُجاهرونَ بهِ
ويُدافعونَ مِنْ أجلِه لم يَنفعهم بشيءٍ في ذروةِ وجعهم.

يُدافعونَ عن وَهْم، يَعيشونَ في سبيلِ الوَهْم، يَموتونَ مِنْ أجلِ إعلاءِ صورة الوَهْم، يُجمِّلونَ ويُرقِّعونَ وجهَ ومُؤخِّرةَ الوَهْم، خوفًا مِنَ الوحدةِ والانعزال، هم لمْ يُجرّبوا الوحدةَ والانعزال، ولو جرَّبوا ذلك سوف يَتخلَّونَ عن الوَهم.

علَّمني التجرُّدُ أنْ أواجهَ الماضي الذي أكرَهُ أنْ أتذكَّره، مهما كبُرَتْ قوَّتُكَ لا بدَّ مِنَ الانهيارِ والضَّعفِ أمام سيناريو تَكرَهُه، ربَّما لأنَّهُ سبَّبَ لكَ الأذى، وجَرَحَ مشاعرَك، وكسَرَ خاطرَك، وحطَّم شيئًا فيك. اليوم أستطيعُ أنْ أفتحَ نوافذَ الماضي منْ غير خوف، ومِنْ غير أنْ أستحي مِنْ شيء،
ودونَ أنْ أنتظرَ عواقبَهُ السَّلبيَّة، التّجرُّدُ تَغيُّرٌ طبيعيٌّ يَنتجُ عن تجربةٍ صادمةٍ بين ما تَلقَّاهُ الفرد، وبينَ تَفكيره الحالي،
وتعامله مع مَلمَّاتِ الحياة، وقدرته على مواجهةِ الواقع.

- لماذا تَكرهُ إسرائيل؟

- لأنَّهم أخبروكَ أنْ تَكرهَ إسرائيل!

وأنتَ صدَّقتَ ذاكَ الادِّعاء، وسلَّمتَ لهم عقلَك مِنْ غيرِ أنْ تَعرفَ مَنْ الذي أوصلَكَ إلى هذا المُنحدر منَ الجهلِ والتَّخلُّفِ

والرَّجعيَّة!

- هل سألْتَ نفسَكَ كلَّ هذه المدَّة التي كنتَ فيها ابنًا لمجتمعٍ يَضعُ كلَّ عثراتِه على إسرائيل لماذا لم يَمنحوكَ حياةً كريمة؟

لماذا لم يَمنحوكَ ضماناتٍ حقيقيَّةٍ واقعيَّة لأبنائِك، ولمستقبلِ شيخوختِك؟ إنَّها براهينُ حيَّة، تُثبتُ أنَّهم على حقٍّ مِنْ غيرِ افتراءٍ على الآخرين!

أعتقدُ أنَّكَ لم تَصلْ لهذهِ المرحلة منَ الشَّفافيَّة، أنتَ ما زلتَ مُدمَّى ممَّن أوهمَكَ إنَّ الدِّماءَ مؤامرةٌ كونيَّةٌ خارجيَّة،

وحقيقتها منهم، مِنْ بنادقِهم، مِنْ حصونِهم، مِنْ سجونِهم، مِنْ تَجويعِهم لكَ ولأبنائِك ولقهرِكَ وقهرِ كلّ شخصٍ يُطالبُ بذرَّةِ كرامة، مِنْ كلِّ ما قد قيل، ومِنْ كلِّ ما سيُقال، ومِنْ كلِّ ما لا تَستطيعُ قولَه، لأنَّ الشَّفافيَّةَ ببساطةٍ ستُجرّدُكَ ممَّا تلقَّيته، أنتَ مهزومٌ مِنْ نفسِك، ومِنْ غيرك، ومِنْ أفكارك، ومهزوزٌ لا ظلَّ ولا بحرَ لك، سوى كلمات كتبَها أحدُهم وهو في أحدِ الفنادِقِ في لندن:

(هذا البحرُ لي...)

أيُّ بحرٍ هذا؟ كيفَ لرجلٍ شبعان، يَقتاتُ طعامًا غربيًّا، لا يَعرفُ السِّباحة، ويخافُ مِنْ رؤيةِ الماءِ والسَّماء، أنْ يَرسمَ حدودَ البحر؟ كيفَ يَستعملُ الأدبَ واللُّغة في رسمِ ما لا يُرسَم، وتَقسيمِ ما لا يُقسَّم؟ كيف لبطنٍ شبعانٍ بغذاءٍ لم تأكلْه أنْ يَستعملَ جوعَكَ في نصٍّ عاطفيٍّ لا وجودَ له جغرافيًّا!

الثَّورةُ الرَّقميَّةُ نَشرتْ غسيلَكم الوسِخ، وكشفَتْ أفكارَكم غير المنطقيَّة، أحضرَتْ رحى الموتِ إلى ديارِكم، فنُّكم المسروق مِنْ ثقافاتٍ أخرى جلبَ أجلَكم، شعاراتُكم المتضاربة مع أفعالِكم شتَّتَتْ شملَكم، إيمانُكم بالوَهْمِ، وعدم اعترافكم بالواقعِ مزَّقَ أدمغتَكم، حتَّى قالَ فيكم شاعرُ الوَهم:

(حاصر حصارَك بالجنونِ وبالجنون!)

استحى شاعرُكم أنْ يفضحَ غباءَكم فوجدَها فرصةً ليَستغلَّ عواطفَكم كي تُصفِّقوا مِنْ سخريتهِ بكم، شجَّعكُم لتكونوا أغبياء، فكسبَ محبَّتَكم له باستغبائِه لكم.

إنَّها محميَّةٌ منُ الأفكارِ المدجَّجة بالانفجار مِنْ أجلِ لا شيء، محميَّةٌ يُستعمَل بها لا شيء، مِنْ أجلِ لا شيء، كلُّ الذين ماتوا ويموتونَ في سبيلِ أفكارهم قد ماتوا بسلامٍ لأنَّهم وجدوا عقولًا تُقنِّنُ الوهمَ وتَقلبُهُ إيمانا، وتُزيِّفُ الحقيقةَ وتَقلبها رِدَّةً أو كفرًا أو خيانة، أنتم في صدمةٍ كبيرة، تُحاولونَ الانتقامَ بالثَّباتِ على الغباء، خوفًا مِنْ أنْ يَكتِشفَ أولادُكم غباءَكم، ومع كلِّ هذا الصدِّ والرَّد، أنتم لا شيء في اللَّا شيء، إنَّ غباءَكم جزءٌ مِنَ الطَّبيعةِ التي لا يَستطيعُ أحدٌ إنكارَها، وإنَّ الذَّكاءَ النَّابع مِنْ تجربةٍ أو المكتسب عبرَ برامجَ تأهيليَّة جزءٌ

منَ الطَّبيعة أيضا، وأنتم تُثبتونَ للعالمِ أجمع بأنَّ لا غباءَ يَعلو على غبائِكم، لقد استعمَلتُم أنفسَكم للقضاءِ على كلِّ مَنْ يَقتربُ لمصالحِ أفكارِ الأموات، التي يُطلِقُ عليها العالمُ المتحضِّر (فلكلور) نعم، أنتم فلكلورٌ للمأكولاتِ فقط، أنتم مُهرِّجون، مُضحكون، كلُّ شيءٍ يَستفزُّكم، أيُّ مادَّةٍ تَقهرُكم، كتلٌ شريفةٌ بلا شرف، كتلٌ ذكوريَّةٌ قومجيَّةٌ وهميَّة وافتراضيَّة لا تَصلحُ للأجيالِ القادمة، أنتم مُنهزمونَ ومُنكسرونَ ومُهمَّشون، تُستَعملُ تَحرُّكاتكم لمصيرٍ مجهولٍ مِنْ أجلِ وهْمٍ مجهول، في سبيلِ موتٍ مجهول، أنتم خائفونَ ومُخيفون، مُجرّبونَ ومُجرَّبٌ بكم جميعُ الأشياءِ التي لا تُجرَّب، فاقدونَ للحسِّ، وتُظهرونَ للآخرينَ بأنَّكم تَشعرون، وأنَّ حسَّكم ميزةٌ وهِبة، أنتم تَنافُسيُّونَ وانتقاميُّون وفاقدونَ لكلِّ شيءٍ بريء.

لا أكتبُ لأحد، فقط أريدُ للوقتِ أنْ يَمرَّ بسرعة، ليسَ مِنْ أجلِ شيء، وربَّما لأكتشفَ شيئًا آخر، لأكتشفَ الشَّخصَ الذي ماتَ بلا سببٍ مع أنَّ هناكَ أكثر مِنْ مليونِ سببٍ لقتلِه، أنا أكتبُهُ الآن، الوعيُ أملى عليه ذلك، هو لا يُريدُ أنْ يَكتب، هو يُريدُ ألَّا يكونَ منَ الأساس، كانَ يَحقنُ نفسَهُ بالمخدِّرات ليتجاهلَ أنَّه مات، لقد تَعافى مِنْ إدمانِه على المُخدِّرات ليكتبَ أنَّه ماتَ مُعلَّقًا بخيطٍ رفيعٍ في وسطِ هذا الوَهم، ليُثبتَ أنَّهُ لم يَعد يُريدُ أنْ يَكون، ولن يَكون، هو وهْمٌ ميّت.

19

(أنا سعيدٌ لأنَّكَ نَجوتَ مِنَ الموت)

د. ڤيند هابير

شعورُ الذي نَجا مِنَ الحربِ العالميَّةِ الثَّانية، شعورٌ لا فائدةَ منهُ على الرُّقعةِ الواقعيَّة، فالمشاعرُ المُقدَّسةُ والوحشيَّةُ
والعاطفيَّة لن تُنظِّفَ هذه المدينة مِنَ الدَّمار، أنتَ محطَّمٌ الآن، أجزاؤكَ مُحمَّلةٌ على عربةِ خُردة، لتُباعَ في سوقِ تكرار الموادِّ وإعادة تدويرها، سيُصهر قلبكَ مرَّةً أخرى ويُستعمَلُ مِنْ جديد، ولكنْ ليسَ بقطعٍ أصليَّة، البكاءُ لنْ يَنفعَ فوقَ كلِّ هذا الرُّكام، السَّاعةُ الثَّانيةَ عَشْرَةَ في منتصفِ اللَّيل، الأنوارُ مُطفَأة، وشخيرٌ يَزحفُ في الحيِّ ليُطمْئِنَ قلبَك، تَعتقدُ أنَّ جميعَهم نائمون، جريمتَكَ أنَّكَ تَأخَّرتَ جدًّا وهذا ممنوعٌ في قانونِ الدَّار، المفتاحُ مُعلَّقٌ في ساعةِ الكهرباء، لمَن تأخَّرَ عن العودةِ إلى البيت، ليسَ هناكَ إلهٌ لتخافَ منه، فقط ظلُّ أبيكَ وسَوْطه وغضبه، إلهٌ لن تُكرّرَهُ الذَّاكرةُ مرَّة أخرى، لأنَّكَ لم تعِ بعدُ معنى الحياة أو الآلهة، تَفتحُ بابَ البيتِ خِلسة، أنتَ لصُّ الوقتِ الضَّائع في وقتِ شخير أخيك، يَعتقدُ جميعُهم ببلوغِكَ ورشدِك وإدراكِكَ لكلِّ شيءٍ حولك، لقد كنتَ بحاجةٍ لشخصٍ يَعلِّمُكَ كيف تَبدأُ الطَّريق؟ وأنْ تَتعرَّفَ على كلِّ الاتِّجاهات، قبل أنْ تأخذَكَ رياحُ العواطفِ وتَرميكَ حيث الخراب، كانت كلُّ الطُّرقِ التي سلكتَها خرابًا بخراب، وولدتَ مِنْ رحمِ التَّجاربِ كما يُقال، كنتَ نسمةً بريئة، تَعتقدُ أنَّك بعواطفِكَ ستصنعُ زوبعةَ رياحٍ تُنظِّفُ قلوبَ النَّاسِ

منَ اللُّؤمِ والشُّؤم، الذِّكرياتُ عالقةٌ في أنفِكَ وأذنيكَ ولسانِك، كانتْ شاهدةً على كلِّ ما حصَل، لم تَعتقِدْ بأنَّكَ ستكونُ آخر مَنْ نَجا، رسامٌ صغيرٌ على مستوًى مرموق، فاشلٌ في المدرسةِ لأنَّكَ تَملكُ خيالا، ولا تَملكُ مكَنةً حافظة، لتحفظَ كلَّ التَّلوُّثِ الفكريّ، وتَدخلَ مجالًا لا يُشبهُك ولا يُشبِه أحلامَك.

لا أعرفُ متى وأين بدأتُ بالتَّجربةِ الدِّينية! وخضتُ تَجربةَ الشَّريعة، وسرعانَ ما كنتُ طالبًا في معهدِ المُحدث الأكبر (محمد بدر الدِّين الحسني)، الجوعُ في دمشقَ، والتَّشرُّدُ والضَّياعُ في قلبِ الدِّين، كانوا بلا منازعٍ حشرات، تُعاني مِن التهابٍ في الكولون، بطونهم مُنتفخة، أحلامهم خلَّبية، لا تُشبهُ الواقع، أُوهِمتُ بالشَّخصيَّاتِ لا بالأفكار، وكنتُ ضائعًا لا أعرفُ بدايةَ الطَّريق ولا نهايته، أنتَ متَّهمٌ بالتَّبعيَّةِ إذا سمعتَ لفلان، أو رأيتَ فلانا، أو سرتَ مع فلان، إنَّهُ كوكبُ الأمراضِ النَّفسيَّة، في عالمِ الالتزامِ كما كانوا يُطلقونَ عليهِ سابقا، خُدِعتُ بالتَّوجُّهِ

والصِّفة، فأبحرتُ في محيطٍ داخليٍّ يَختلفُ جذريًّا عن طرقاتِهم، واتُّهمتُ بأنَّني غريبُ الأطوار، وغير واضح التَّفكير اتِّجاه الدِّين، كانتْ الأسئلةُ تُلاحقُني أينما اتَّجهت:

مَنْ أنت؟ مع مَنْ تكون؟

في قلبي بساطةٌ كبيرةٌ جدًّا، وحُسْنُ نيَّةٍ نحوَ الآخرين، كنتُ لا أستعملُ كلماتٍ مِثل: (أنت شو دخلك!) كانَ الوقتُ يَسيرُ بسرعة، وأنا أحاولُ إظهارَ نيَّتي الطَّيِّبة نحوَهم، حتَّى جاءَ يومٌ انهرتُ تمامًا، فتحتُ بابَ البيتِ المُظلم، سمعتُ صوتَ أبي، وهو يَجلسُ على الصُّوفة مُنتظرًا قدومي، قالَ بلهجةٍ غاضبة

عندما رآني: (هذه آخر مرَّةٍ تَتأخَّرُ بالعودةِ إلى البيت) لم يَكنْ زِرُّ التَّبرير للآخرين مُفعَّلًا عندي، كنتُ أعتبرُ طريقةَ حديثهم معي عدوانية، لأنَّ الذي يَسكنُني طفلٌ رسَّامٌ وحسَّاس، لا يَقبلُ أن يُهان، لم أكنْ أعلَمُ أنَّ هذا خشية عليَّ منَ الأذى، ومِنَ الظَّلام، لأنَّني لم أفكِّر يومًا بأنَّ مدينتَنا يَقطنُها لصوصٌ وسفَّاحون وقَتَلة! اندلعتْ على الأرضِ ثورةٌ ضدَّ أنفسهم، وعلى فسادِهم (ثورة التَّناقضات) ثورةُ العواطفِ المُشلَّخة، ليسَ هناكَ ما أخسره، لن أخسرَ الجماهيرَ أو المكانة أو الممتلكات، لن أخسرَ الأرواحَ التي تَقربُني، إنَّها متعةُ التَّحرُّرِ منَ الموجودات، مِنْ أجلِ رأيٍ ربَّما تُؤذى عليه لاحقًا، ولكن لم يَبقَ منَ العمرِ شيئا، هيك وبكلِّ بساطة (بدنا حرية) بعباءةٍ دينيَّةٍ قوميَّة دكتاتوريَّة، (بتحس مش عارفين شو بدهم! بدك ترجع عالبيت السَّاعة العاشرة مساءً، بدك تدرس الاختصاص يلي بدهم إياه، بدك تعمل عمل على حسب مستوى مكانة أهلك الاجتماعية...) بالمختصرِ محاصرٌ بما يُريدون، مَنْ هُم؟

بقيتَ لوحدِك، ليسَ هناكَ حججٌ أخرى لتقول: (هُم)

الخروجُ مِنْ جحيمِ (هُم) بدايةٌ لتطريزِ قميص السَّجين المُنفرد، الذي فضَّلَ العزلةَ على الخوضِ في مسألةِ المسحِ على الجوارب، الشَّكُّ يُطوى بغسلِ القدمين،

وأنْ تَتركَ الشَّكَّ لأهلِ الشَّك، وتَتركَ كلَّ هذه الفوضى العارمة في أزمةِ الانسلاخ مِنَ الماضي، ولكن أنا أقفُ على كومةِ خراب، كلُّ شيءٍ تَبخَّر، والحقيقةُ الأولى التي صُدِمتُ بها، إنَّ جميعَنا سوف نَموت! هذا ما قلتهُ للطَّبيبِ اليوم، نَظرَ نحوي

وابتسم، وقال لي: (وأنا أيضًا)

كانَ مُتفاجِئًا تمامًا مِنْ طريقةِ تَعبيري، إنَّها طريقةٌ مختلفةٌ عن كلِّ مرَّة، لأنَّهُ مُعتادٌ على سماعِ الخراب منَ المُراجعين.

لقد زادَ وزني بسببِ الأدوية، تَخلَّصتُ منَ الناسِ جميعهم، فأنا لا أرى أحدا، ولا ألتقي بأحد، ولا أرغبُ بفتحِ علاقاتٍ جديدةٍ في المستقبلِ مع أحد، أضفتُ ذلك: (إنَّني بخير) وبدأتُ أتحكَّمُ بكلِّ إرادَتي وعواطفي ومشاعري، وتَخلَّصتُ مِنْ ملاحقةِ جميع ما يُؤذيني، وأصبحتُ قادرًا لأنْ أقولَ للأعور: (أنت أعور بنص عينك) دون الخشيةِ مِنْ خسارةِ الطَّرفِ الآخر، التَّجرُّدُ مِنْ كلِّ شيءٍ كلَّفَني خرابًا لن يُنسى، أضفتُ أيضًا:

(كنتُ أحد النَّاجينَ مِنْ زلزالٍ راحَ ضحيتُهُ جميعَ الذين أعرفُهم، وكنتُ النَّاجي الوحيد) فقدتُ القدرةَ على تَحمُّلِ كلّ هذا الخراب، فأنا سعيدٌ ولستُ سعيدا! الاستيقاظُ مِنْ غرفةِ العنايةِ المركَّزة بعد ثلاثةِ وثلاثينَ سنة، وموتُهم وبقائي على قيدِ الحياة، الأمرُ مخيفٌ بالنِّسبةِ لي، يجبُ أنْ أعملَ كثيرًا لتنظيفِ هذا الدَّمار الذي سبَّبتُه لنفسي مِنْ غير وعيٍ ولا قصد، لستُ مُستعدًّا أنْ أبرِّرَ لأحد، لأنَّني لم أعد أثقُ بأحدٍ على الإطلاق، ولنْ أسمحَ لأحدٍ بالتَّدخُّلِ في حياتي الشَّخصيَّة على الإطلاق، مهما كبُرَ شأنُه أو صغر، لم يَعدْ هناكَ ما يُخيف، لأنَّ كلَّ الذي كنتُ خائفًا منهُ حَدَث، ولم يَتضرَّر بسبَبِهِ الكون.

مهما كانت مكانتكَ في قلوبِ الناس، ضَع في بالكَ أربعةَ أسرارٍ عنِّي قبلَ الانتهاءِ من هذا الكتاب:

(لا أؤمنُ بالصَّداقاتِ ولا بالمحبَّة)

(الموتُ هو الحقيقةُ التي يَكرهُ سماعها جميعُ النَّاس)

(لا أثقُ بأحدٍ ولا أنتظرُ مِنْ أيِّ أحدٍ أنْ يثِقَ بي)

(كلُّ الطُّرقِ الإصلاحيَّة مبنيَّةٌ على المصلحة)

كلُّ ثيابي تَصلحُ أنْ تكونَ مَمسحة، لأنَّها جزءٌ مِنْ غرفةِ العنايةِ المركَّزة، التي خرجتُ منها أثناء مرحلةِ التَّأهيل الذَّاتي، التي ألزَمتُ بها نفسي لأعلمَ نهايةَ هذا الطَّريق.

كانت الفوضى عارمة، كانت مكسورةَ الخاطر، وهي عائدة مِنْ بيتِ زوجِها السَّيِّئ، كنتُ جزءًا مِنْ مُذكَّراتِ تائهة، تَسعى لتكونَ جزءًا مِنْ هذا الدَّمار، (البح) تعريفُ المادَّةِ الحقيقيِّ الصَّادق الذي لا تَشوبه شائبة، كانتْ معلِّمةً صالحة، تُحبُّ أنْ يَكونَ تلاميذُها نُجباء وفَطِنينَ وأذكياء، تتوسَّمُ بصراصير المطبخِ خيرا، لكنَّ الخيرَ أنْ تَتركَ المدرسةَ للتَّقاعدِ بسببِ مرضها (سرطان الثدي) كانَ المصلُ جاهزًا في كلِّ فصلٍ مِنْ فصولِ حياتها، كانت كلُّ فرحةٍ تُقرِّرُ أنْ تَتركَ لها العنانَ مَقصوصة، قصَّتْ لها أمُّها شعرَها في سنِّ تعليبِ مربَّى الخوخ، قصَّتْ جدَّتُها قطعةَ لحمٍ مِنْ فرجِها بشفرةٍ حادَّة بعد عودتِها مِنْ بيتِ خالتِها، حلمتْ بالدُّميةِ التي يُحاولُ أبيها أنْ يَشتريها لها، قصَّ أخوها تنُّورتَها، وأفسدَ قميصَها الأحمر بحجَّة أنَّ البناتَ لا يَرتدينَ فَساتينَ ملوَّنة وقُمصان زاهية،

واليوم قُصَّ ثديها الأوَّل، فغابتْ عن مدرستِها وطلَّابِها، وقُصَّ ثديها الثَّاني، وقُصَّتْ مِنَ الأرضِ حُفرة لها بلا شاهدة، لأنَّ ابنَها السَّلَفي يُحرّمُ شاهداتِ القبور، كما يُحرِّمُ اللهُ الظلمَ في الأشهرِ الحُرم!

إنَّها شهورٌ مكتوبة في تقويمٍ يُعلَّقُ في بيتِ الضِّيافة، في مُؤخِّرتِهِ حكمةٌ أو حديثٌ نبويٌّ أو لغز، حرَّمَ المُفتي رميَ أوراقه في القمامةِ خشيةً مِنْ أنْ تَختلطَ القمامةُ باسمِ الله، فتهدر هيبة الإلهِ الذي ليسَ قادرًا على إنقاذِ اسمه.

كانَ اسمُهُ يُشتَمُ في المخابراتِ السِّياسيَّة، وكانَ الجلَّادُ لا يَكفُّ عن إهانةِ المتديّنينَ بشتمِ أمَّهاتهم، وأمّ اللهِ التي لم يُعرَفُ اسمها إلى يومِنا هذا، واحدٌ أحَد لا شريكَ له، لهُ بيوتٌ في كلِّ أصقاعِ الأرض، باردةٌ، مُعطَّرة، مَخدومة، يَرتادُها الكاذبونَ

والدَّجالونَ والمُتسوّلون، ويَهربُ منها كلُّ منْ تأذَّى بكلمة، كلمةٌ واحدةٌ كفيلة بأنْ تُنقذَ فكرةً ضبابيَّة، ولكن هُوجِمتْ مِنْ غيرِ الجلوسِ ومواجهتها بسلاسة، وأخذِها بعقلانيَّةٍ وواقعيَّة، ورُميَتْ بأنَّها مِنْ أعمالِ الشَّيطان، واللهُ براءٌ مِنَ الشَّيطانِ وأعمالِه، كانَ اسمُها الآنسة (فاطمة) كانتْ ذاكرةً طيّبة لم تُؤذِ أحدا، كنتُ أتردَّدُ إلى بيتِها مِنْ أجلِ أنْ أعرفَ الواجبَ البيتيَّ بحجَّةِ أنَّني نَسيت، ولكنَّ مقصَّ القدرِ كما يُقدِّرُه المقدّرون قَصَّ وجودَها وتَبخَّرت، وكانَ حظُّها جميلًا بأنْ أتذكَّرها، لأنَّها جزءٌ مِنْ مسألةِ (البح) اختفتْ تلكَ المعلِّمة كما اختفتْ أُمِّي، وعليَّ أنْ أتقبَّلَ أمرَ اختفائي كما اختفى غيري!

كانَ الطَّبيبُ يَستمعُ لي لأنَّني بخير، اكتشافُ اللَّا شيء، تركُ كلِّ شيء، عدمُ التَّبرير، فنُّ التَّخلي، سرُّ عدمِ المبالاة... أنتَ في نعيمٍ كبير، وهو أنَّكَ لم تَعُد تَشعر بالوقتِ الرَّاهن، لديك الكثيرُ مِنَ الذِّكرياتِ المدفونة: رائحةُ عرائس الزَّعترِ والجُبنة، كأسُ الشَّاي، القهوةُ المُرَّة بالهيل، رائحةُ الخيارِ والطَّماطم، الزَّيتونُ الأخضر، المكدوس، ورائحةُ ملذَّاتٍ قديمةٍ مُفعمةٍ بالنَّعيمِ الذي أفقدُه وأفقِدُ وجودَه مع أفرادٍ مُؤسِّسينَ لهذهِ الحلقة المفقودة، كنتُ هناك لا أفعلُ

شيئا، وأنا هُنا أَنتهي مِنْ كلِّ الأشياء، وأترُكُها كما تَرَكَ لي الطَّبيبُ هذا اليوم رسالةً في البريدِ الإلكتروني:

(أنا سعيدٌ لأنَّكَ نَجوتَ مِنَ الموت)

لكنَّني لم أنجُ مِنَ الذَّاكرة، آثارُها في جسدي وعقلي، تَركتُها للَّا شيء.

20

(لم أكُنْ أعرفُ الله، كنتُ كلَّما حاولتُ التَّقرُّبَ إليهِ خطوة، يَختفي فجأة)

لغةُ الجمعِ سائدةٌ في اللُّغةِ العربيَّة، يَأمرُ بها الإلهُ بطريقةِ الجميعِ لتعظيمِ ذاته ونأتي بها جَمعًا، في السَّنةِ الرَّابعة، في مدرسةِ الشَّريعة، في العاصمةِ دمشق، وتحديدًا في معهدِ بدر الدِّين الحسني، كانَ اللهُ هناكَ يوميًّا، يَرتدي ثوبًا ونعلًا خفيفا، ويُمسكُ سبحةً يَمنيَّة بتسعٍ وتِسعينَ حبَّة مِنَ الأحجارِ الكريمة،
في وسطها مِئذنة، على رأسِها شربوشة خضراءُ مُتناسقة وطويلة، الغائبُ الحاضرُ هو عدم وجودِ الطُّمأنينة في وجوهِ الطَّلَبة، ثقافاتٌ وحضاراتٌ صُبَّتْ في ذاكَ المكان صبًّا، يَتجاوزُ عددُ الجنسيَّاتِ أربعةً وأربعين، رأيتُهم مُتثاقلينَ ومتفائلينَ بتعلُّمِ اللُّغةِ العربيَّة، وحِفظِ النُّصوصِ كما جاءَتْ بالكتبِ مِنْ غير استيعابِ معنى هذهِ الأوامر، بحجَّة إنَّ تسعينَ بالمئةِ منها مُسلَّمات، الخوضُ بها يَعدُّونه كُفرًا ورِدَّةً وخروجًا مِنْ عباءةِ الدِّينِ وانحلالًا وجنونا، كانتْ مِساحةً مُعلَّبةً بالأوامرِ التي يُصدِرُها أعلامُ الشَّام، وبركتهم مِنْ عُظَماءَ ثَبَتُوا على الطَّريقِ إلى نهايتِه، ولأنَّنا في المبيتِ الدَّاخليِّ كنَّا نَنامُ على أمرٍ ونَستيقظُ على آخر، ولا يوجدُ مجالٌ للنِّقاشِ أو الرَّفض،
نُفِخَ في رؤوسِ جميع المُقيمين ثاني أُكسيد العَظَمة والجلالة والغِبطة، كانوا يَتصنَّعونَ ويَتقنَّعونَ بلا أيِّ استثناء، هناكَ مَنْ يَتظاهرُ بالتَّواضع لتكونَ له مكانة، وهناكَ مَن يَلتزمُ بالنُّصوصِ لتكونَ لهُ تبعيَّة، وهناكَ مَنْ يَدعو للرَّئيسِ مِنْ أجلِ منصبٍ في وزارةِ الأوقاف، وهناكَ مَنْ يَشطحَ ويَنطحَ ويَتهبَّل بخيالهِ الواسع على قليليّ الفَهمِ والأغبياء، وهناكَ مَنْ يَلتزمُ الحيادَ ليجذِبَ الانتباه،

ناهيكَ عن التَّشدُّقِ بالبلاغةِ ليُحدِثَ ضجَّةً خَطابيَّة على ألسنةِ الضَّحايا، وخُذْ ألقابًا وأوصافًا وشِعاراتٍ هشتك بشتك (أسدُ المنابر، أسدُ السُّنَّة، شيخُ القرَّاء، العالِمُ النَّحرير، شيخُ المنطق، سلطانُ اللهِ المؤرِّخ، خريةُ النُّور، بول العارفين بالله...) وعلى هذا فقِّس كما ذُكر في كُتبِ الفِقه.

كانَ الجميعُ مُقدَّسين، يَصلحونَ ليكونوا مُمثِّلينَ بارعين في هوليود، وكانَ اللهُ يُساعدُ الجميعَ على تَمزيقِ بعضِهم،
وكانَ الوَهمُ سيِّدَ مَنْ لا سيِّدَ له، وخُذْ مناماتٍ وتأويلاتٍ وأحلاما، وصارِع خنازيرَ بريَّة في واحةِ وحلٍ قد حطَّتْ عليها قبيلةُ بعوض، كانَ بعضُهم يَتصيَّدونَ بعضًا بالنُّصوصِ والعواطفِ، وبعضهم يَقودون بعضًا إلى معاركَ ضارية، تَنهشُ قدسيَّتَهم وتُطفِئُ هيبتَهم.
كنتُ شخصًا يُؤدِّي كلَّ الأدوارِ لأكسبَ ودَّ الجميع ولكن (الخرية يلي ما بتنفع معها المعالمة الحسنة ما بطولك منها غير ريحتها) كانوا قليلي تربية، وقليلي ذوق، ومُقرفينَ لدرجةٍ لا أحدَ يَتصوَّرها، كانَ المُجمَّعُ مشفًى للأمراضِ النَّفسيَّة، والعقلُ في خبرٍ كان، والجميعُ يَحلمون بأنْ يُقدِّسَ النَّاسُ أفكارَهم ولو بالقوَّة، ليسَ لديهم أدنى فكرةٍ عن احترامِ مشاعر الآخرين، لدى المتلقِّي خياران: (إمَّا أنْ تُنافقَ له، وإمَّا أنْ يَرميك بتهمةٍ إيمانيَّة ويُشوِّهَ سمعتك) كانَ الكلُّ مُرتبطًا بالكلّ،
ويَخشونَ الوحدةَ أو النَّفيَ أو عدم تَقبُّل وجودك...

كنتُ أريدُ أنْ أقولَ إنَّني دفعتُ الثَّمنَ في تلكَ الحضيرة، وكسِبتُ خبرةً كبيرة، مع أنَّني كنتُ شخصيَّةً مُتناقِضة، لأنَّ الجديدَ يَنفي كلَّ الذي تَلقَّيته، نحنُ نَعيشُ

في صدمة، ربَّما ينكرُها الأغلبيَّة، معذورونَ لأنَّهم ما زالوا في بُؤرةِ الوَهْم، ولنْ يَتنازلوا خوفًا مِنْ زوالِ مصلحتهم الإيمانيَّة الوهميّة غير المنطقيَّة وغير العقلانيَّة، إنَّهم يَستعملونَ كلَّ وسائِل التَّطور العلميَّة لتلميعِ الآلهة، وتَعظيمِ الوَهْم، وجلبِ النُّفوسِ الضَّعيفة لاستغلالِهم واستعبادِهم وتَسخيرِهم لمصالح اقتصاديَّة وجنسيَّة واجتماعيَّة، قساةٌ جدًّا، ويَبحثونَ عن محميَّةٍ جاهلة لتطويرِ العُنف كي يَحموا مصالحَهم، لهذا السَّببِ لا وجودَ للشَّفافيَّة ولا للحوار، هم يُحدِّدونَ الحوار، ويُخطِّطونَ للأفكارِ المُكتسَبة ليخوضوا بها داخل أطرٍ لا تُفسدُ مصالحهم، إنَّها مؤسَّساتٌ شعبويَّة، نازيَّة، ذكوريَّة، طبقيَّة، أبويَّة، مُتوارثة، يَتحكَّمُ بها الاستغلاليُّونَ لمنافع تَعمُّ قادةً دكتاتوريّين، وساسةً مُستغلِّين، ورجالَ دين منفوخين بضراطِ العَظَمة، والتَّقديس، والتَّمثيل، وتعطيلِ الطَّبيعة، وتكريهِ النَّاس ببعضهم، وتَعتيمِ الحقيقة، وتَلميعِ الوَهْم والآلهة.

إنَّها سلسلةٌ فاشلةٌ فاشيَّة دمويَّة، أطلقوا عليها قديمًا (قريش) والآن هي قريش ولكنْ بثوبٍ آخر!
دَعنا منهم، لنركِّز على الأفكار، ولنتجاوز الأشخاص، لأنَّ جميعَ النَّاسِ سوفَ يَموتون، يَقولُ لي صديقي وهو بروفيسور:

(كنتُ أتمنَّى لو أنَّني أقتلُ محمَّدا، وأخلِّصُ النَّاسَ منَ العبوديَّة!)

كانَ ردِّي بكلماتٍ بسيطة:

- أنا شخصيًّا لا شأنَ لي مع محمَّد، ولا مع غيره مِنَ الذينَ ماتوا، ومِنَ المستحيلِ عودتهم مِنْ منظورِ الطَّبيعة والعلم

والعقل، ومِنَ الطَّبيعيِّ أنْ تَجدَ اختلافًا ممنهجًا وغير عقلاني بينَ أتباعِ محمَّد، هم تَربَّوا على هذهِ الطَّريقة، وليسَ مِنَ السَّهل أنْ تُوضِّحَ فلسفةَ الحياةِ لهم، لأنَّهم وبكلِّ بساطة يَصفونَ كلَّ شخصٍ خارج إطارِهم بالجنون، حتَّى لو اكتشفَ ما لم يَكتشفْهُ البشرُ بعد، وأيضًا القاعدةُ تَنطبقُ على كلِّ التَّجمُّعاتِ الدِّينية والقِبَليَّة والقوميَّة وغيرها، ونحنُ جزءٌ صغيرٌ مِنْ هذا الخليط، إنَّهُ جزءُ الرُّؤيا المُترفِّعة عن كلِّ الوَهْم، إنَّهم أناسٌ شرفاء وكرماء وعندهم غِيرة وشهامة لكنَّهم مِنْ مِنظارِ العلمِ والطَّبيعة مجانين، يولدونَ على الوَهْم، ويَعيشونَ على الوَهْم، ويَموتونَ على الوَهْم، إنَّ وجودَهم تكاثرٌ ذكوريٌّ لا فائدةَ منهُ سوى بسحقِ العقل، وإبطالِ العِلم، عذرُهم حقيقيّ، وهذا الذي أريدُ أنْ أركِّزَ عليه:

الحقيقةُ حادَّةٌ وجارحةٌ وقاتلة، إنها شفرةٌ بحدّين، التَّركيبةُ البشريَّةُ مقسومةٌ إلى ثلاثةِ أقسام:

- منطقيَّةٌ وعقلانيَّة: وهذه مُؤذية.
- جسديَّةٌ عضويَّة: تُساعدُ على الحركةِ حسب تَربيةِ الفرد.
- عاطفيَّةٌ وهميَّة: يَتشاركُ بها جميعُ النَّاس، ويَهربُ إليها الأغلبيَّةُ السَّاحقة، لأنَّهم ضعفاءُ عند مواجهةِ الحقيقة، إنَّها تركيبةٌ عاطفيَّةٌ مُنكسرة، هؤلاء مخلوقاتٌ عبثيَّة، يَخشونَ الطَّبيعةَ وجمالَ العقلِ وحِدَّته، مركَّبونَ منَ الخوفِ والرَّجاء، ضائعونَ بين الحلمِ والهدفِ والطَّريق، مُشتعلونَ بالحنانِ والأمانِ والحبِّ والأمل، مُنقادونَ بالحماسِ والانتقامِ والقتالِ الذي لا فائدة منه.

العالمُ يَعيشُ في صدمةٍ كبيرة، بسببِ ما بسطَه العلمُ بنقلِ المعلومة بطريقةٍ سريعة، ودون إضاعة الوقتِ للتَّأكُّدِ منَ البعرةِ التي تَدلُّ على البعير، وعلى آثارِ السَّيرِ التي تَدلُّ على المسير، ويَنتهى النِّقاشُ بأنَّ الواحدَ الأحد، لم يَلد، ولم يُولد، ولم يَكنْ له كفوًا أحد،

يَقولونَ لك: إنَّ سرَّ الكونِ عظيم، خلَقهُ الإلهُ لقضيَّةٍ ما، منْ أجلِ جماعةٍ ما، لينتقمَ مِنْ أحدٍ ما، يَقولونَ لك: لا نَعلمُ بما قبل الصِّفرِ لأنَّ صفرَ الأصفارِ هو، والبداية والنِّهاية هو، والطُّلوع والأفول هو، ومِنهُ خُلِقنا وإليه نَعود، إلهٌ مذكَّرٌ جالسٌ على عرشِه، يَحملُ كرسيَّهُ ثلَّةٌ مِنْ مخلوقاتٍ غير مرئيَّة، خلقَها لتُساعدَ عجزَه وضعفَه، وأنشأ بعد الحياةِ حياة، كانَ منَ المُفترضِ أنْ نُؤمنَ بها دونَ أدنى فكرةٍ عنها، جاءَ بها رجلٌ ولم تأتِ بها امرأة، لأنَّ المرأةَ ناقصةُ عقلٍ ودين، تَحملُ الذُّكورَ والإناث، وتُنجبُ للعالمِ بشَرا، فيَدوسونَها ويُقلِّلونَ مِنْ شأنِها ويَشتمونَها، لأنَّها أقوى مِنَ الرَّجل وتَتحمَّلُ أكثر منه، ويُهانُ فيها مَنْ يُخالفُهم فكريًّا وعقديًّا وقوميّا، ويُشتمُ أصحاب الميولِ الجنسيَّة التي لا تَتطابقُ مع معاييرِ مجتمعهم النَّبوي، الذي يَسكنُه الوَهْم، ويُحاصرُه الخيالُ والزُّعاقُ والضراط، وكل ما يضرط أحدهم تُحمى منابعُ الإلهِ مِنْ شمِّ رائحة روث البشر، ويَقولُ لكَ أحدُهم:

(إنَّ للبيتِ ربًّا يَحميه)

العلمُ عرَّاهم، ووضَعَ حدًّا لنزعتِهم النَّازية، الدَّمويَّة، الذُّكوريَّة، كانتْ الحقيقةُ أكبرَ مِنَ الكلامِ الفارغِ تحتَ قبَّةِ مجلس الإله، حاصَرَهم الجوعُ وهزَّ

وجودَهم، أحاطَ بهم الدَّمارُ مِنْ كلِّ مكانٍ بسببِ جهلهم بالواقع، إنَّهم شخصيَّاتٌ غير واعية، يُعرفونَ بما لا يَعرِفون، ويُعاملُهم العالمُ بأنَّهم مخلوقاتٌ مهووسة بالمؤامرةِ والضحيَّة، ويَترفَّعُ بالمعاملةِ معهم، لا يَملكونَ العقل كالطِّفلِ أو كوافدٍ في مصحٍّ للأمراضِ العقليَّة والنَّفسيَّة، العالمُ يُعامِلهم كمخلوقاتٍ حسَّاسة، تَفورُ وتَثورُ لأسباب تافهة في نَظرِ العالم، وفي نظرِهم عَدُّوها مَبدأً وشرفًا وكرامة، نظرتُهم دونيَّة للعالم، لا يُمكن محوها بسهولة، لأنَّ الوهمَ سيطرَ عليهم، الجنَّةُ مكانهم، والأفضليَّةُ لهم، والإلهُ كرَّمَهم ورَفعَهم مكانًا بارزًا وعَليّا، صاروا محطَّ نَظرِ المَخابر النَّفسية، بسببِ الجهلِ المُستهلَك والمُكتَسب بالعَصا مِنْ غيرِ فهمٍ للمحيط.

لقد عَرفتُ جزءًا منهم، يُؤمنونَ بالعَبثِ
ولكن لا يَبوحونَ بهِ خشيةً مِنَ القضاءِ عليهم، المُضحكُ أنَّهم يُؤمنونَ بالعبث، ويَخافونَ منَ الموت، في الحقيقةِ جميعنا سوفَ نَموتُ لا محالة، لأنَّ الطَّبيعةَ مُلزَمة بتكرارِ ذرَّاتنا لمهام أخرى، نحنُ ميّتون، لا وجودَ لنا، ولا خوف مِنَ القادم، إنَّ كلَّ ما نَخشاهُ سوفَ يأتي لا محالة، هو جزءٌ منَ العبَث، إنَّ أسوأَ أنواعِ العبثِ نوعٌ يُصاحبُه اكتئابٌ يَنامُ على فوضى ويَصحو على فوضى، ويَزدادُ جنونا، ويَعتقدُ أنَّه يَنتقمُ لنفسِه، لكنَّهُ يُكملُ على ذاتِه، ويَزيدُ الخرابَ خرابا، هم هكذا لا يَثقونَ بأماكنِ تَجمُّعاتهم ومَنابتهم، ومِنْ بينهم أنا، لأنَّ الثِّقةَ مفقودةٌ تمامًا بالمحيطِ وبالأفكارِ وعلى حسبِ التَّجربة.

كنتُ هناكَ فعلًا، وخضتُ أغلبَ التَّجارب، ولا أستحي منها، ولا أرغبُ بإزالتِها أو تَركِها، كانتْ مُهمَّةً منَ النَّاحيةِ المِخبريَّة التَّجريبيَّة، ولكنَّها لا

تَعني لي شيئا، فقط أبتسمُ عندما أتذكَّرها، لأنَّها جزءٌ منَ الهبةِ العاطفيَّة التي مِنَ المحالِ نِسيانها، ربَّما أعطتْني القدرةَ على تدوينِها كما جاءت،
وأعطتْني القوَّةَ بتوضيحِها بعيدًا عن التَّمثيل، كنتُ ممثِّلًا فاشلا، لأنَّ خيالي الواسع كانَ كفيلًا بِجرِّي نحوَ الموتِ عدَّة مرَّات، وكانَ الطَّبيبُ يُقول لي:

(لقد نَجوتَ بأعجوبة)

كنتُ غبيًّا لدرجةٍ لا توصف، لكنَّ ضرباتِها أسَّستْ شخصيَّةً مُتناقضة تُدعى: (أنا) شخصيَّة تُجاملُ كلَّ النَّاس، وعلى حسبِ اعتقاداتِهم تَحسُّبًا مِنْ جرحِ مشاعرهم الإيمانيَّة الوهميَّة، مع أنَّ أغلبَهم يَجرحني بتفعيلِ نصوصهِ العقديَّة، لكنَّني أراهُ شيئًا طبيعيّا، لأنَّهُ مغيَّبٌ عن الوعي، عليَّ أنْ أتَقبَّلَ ذاتي كما أنا، وأتقبَّلَ المحيطَ الخارجي، وأنْ أضعَ قاعدةً مُهمَّة مفادها: (ليست مهمَّتكَ أنْ تُنقذَ عقولَ النَّاسِ مِنَ الضَّياع)
الطَّبيعةُ تَحتاجُ كمًّا كبيرًا مِنَ الأغبياء، كي يَجدَ العقلاءُ رسالةً لتوضيحِها، وبينَ الغباءِ والذَّكاء أحاولُ التَّجرُّدَ أكثر وأكثر، لأُبصِرَ كلَّ الأشياءِ التي مُنِعتُ عنها لأسباب غير مُقنعة ولا منطقيَّة، الطَّبيعةُ تَسحقُ كلَّ شيءٍ مِنَ اللَّا شيء.

زهير أبو سعد.

أنهيت كتابة كتابي رقم 32 تحت عنوان

{ لا شيء من اللا شيء}

يوم الأربعاء /3/مارس/ 2021 للميلاد.

الساعة: 30 : 06 مساء.

بتوقيتِ العاصمة النمساوية فيينا في منزلي الأخضر.